عماد الدين زنكي

فاتح الرها

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م



الكويـت - مدينة سـعد العبدالله - الدائري السـادس - ق3 - م28
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398

الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
(الكويت)
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447

شخصيات تاريخية
(١)

عماد الدين زنكي

فاتح الرها

إعداد
غانم شيحان جويعد الشمري
عضو الجمعية التاريخية الكويتية

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة الناشر

لقد آلت دار الظاهرية على نفسها نشر كل ما هو مفيد للقارئ، في كل منحى من مناحي الحياة، وفي كل مجال، سواء في الشريعة أو الأدب أو اللغة أو الثقافة أو التاريخ...الخ.

ودار الظاهرية، منذ تأسيسها وحتى اليوم، تسير في خط واضح، وهو تقديم الكتب التي تحمل طابع الأصالة والفكر المستنير، وهي لن تحيد عن هذا الأمر، وسوف تستمر في تقديم كل ما يمكن أن يرتقي بالقارئ، ويوسع مفاهيمه ومداركه.

وانطلاقاً من ذلك، وانطلاقاً من المبادئ التي تؤمن بها الدار، فإنها تبدأ في تقديم سلسلة «شخصيات تاريخية» لتضع كل ما كانت تفكر وتؤمن به على أرض الواقع، بهدف تسليط الضوء على شخصيات عربية وإسلامية وحتى أجنبية، نذرت نفسها للإنسانية، وقدمت الكثير لبلادها وأمتها.

ولأننا ندرك أهمية انتقاء الشخصيات وقيمتها، كي نضع تاريخها بين يدي القارئ، فإننا سوف نسعى إلى اختيار شخصيات كان لها أثر ملموس في حياتها، وعلى من حولها من مختلف العصور.

ونعد القارئ بأن نستمر على هذا المنوال، وأن نزيل الغبار عن الكثير من الشخصيات المؤثرة، ونقدم لهم وجبة دسمة من «شخصيات تاريخية» صنعت المجد لنفسها ولأمتها.

النـاشـر



الإهداء

أهدي هذا الكتاب

إلى خيمة الحنان وغيمة المكان

إلى من علمتنا المعنى الحقيقي للصبر

إلى من تُقدم العطاء .. بسخاء

ولا يعرف قلبها سوى النقاء..

إلى من نذرت نفسها في تربية أبنائها وتعليمهم

إلى أمي الغالية...

أسأل الله أن يمد في عمرها بالصالحات

ويختم أعمالها بالحسنات..

ويرزقنا رضاها .. ونعوذ بالله من عقوقها

اللهم آمين

ابنك غانم

قالوا عن عماد الدين زنكي

• ظفر المسلمون ببطل آخر بالغ القوة وهو عماد الدين زنكي.

ستيفن رنسيمان/ تاريخ الحروب الصليبية

• ليس من شك في أن أعظم مآتيه وآخرها انتزاع الرها من أيدي الفرنج الذين سيطروا عليها نحو نصف قرن.

كارل بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية

• كان زنكي تركياً قوياً وسيداً وحاكماً للمدينة التي عرفت من قبل باسم نينوى.

وليم الصوري/ تاريخ الحروب الصليبية

• لو أن زنكي لم يجد في طريقه عقبات عند قتال الفرنج، لسقطت مملكة بيت المقدس في زمن سابق لما سقطت عليه فعلاً.

آرنست باركر/ الحروب الصليبية

• كان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف.

ابن الأثير/ الكامل في التاريخ

• على يد هذا البطل حل الجزر محل المد في الحروب الصليبية.

د.أحمد شلبي/ موسوعة التاريخ الإسلامي

• ما لبث عماد الدين أن أصبح أقوى حاكم مسلم في زمانه، لأنه طوّع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام.

د. قاسم عبده قاسم/ ماهية الحروب الصليبية

• ظل زنكي يعتقد أن توحيد قوى المسلمين في الشام هي الخطوة الأولى التي يجب أن تسبق أي خطوة للقضاء على الكيان الصليبي.

د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ الحركة الصليبية

• تمثل أتابكية عماد الدين زنكي مرحلة مهمة في التاريخ السياسي لبلاد الشام والجزيرة في مواجهة.

د. محمد مؤنس عوض/ في الصراع الإسلامي الصليبي

المقدمة

عماد الدين زنكي بن آق سنقر ولد في زمن كانت فيه الأمة الإسلامية في أضعف مراحلها، فقد كان التمزق والانقسام والاقتتال بين المسلمين هو العنوان الأبرز لتلك المرحلة الحساسة من تاريخ أمتنا الإسلامية.

ولد في القرن الخامس الهجري، وهو القرن الذي تمكّن فيه الصليبيون من تأسيس أربع إمارات صليبية في المنطقة هي: الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس، ويؤكد المؤرخون العرب والأجانب على حد سواء أن الوضع المزري للأمة والاقتتال فيما بينهم، والخلاف المستمر بين الخلافتين العباسية والفاطمية هو الذي سمح للصليبيين من تحقيق هدفهم وتأسيس إماراتهم، ويقول المؤرخ الإنجليزي آرنست باركر «لو تقدم الصليبيون عشر سنوات، أو تأخروا عشر سنوات لرموهم المسلمون عرض البحر».

عماد الدين زنكي وجد نفسه، وهو صغير، في خضم هذا الوضع، بل يعيشه في كل لحظة من لحظات حياته، منذ أن كان طفلاً صغيراً مع والده آق سنقر الذي كان يقود جيش السلطان السلجوقي ملكشاه، ويدافع عن بلاده وممتلكاته، ويفتح الدول باسمه. ولما اختفى والده عن مسرح الأحداث تولى رعاية عماد الدين الأتابكية وقادة الجيوش من أصدقاء أبيه الذين أولوه الرعاية الكاملة، وفي الوقت نفسه يقاتلون الصليبيون ويدافعون عن حرمات بلاد المسلمين حتى كبر الصغير ووعي الأحداث كلها، وهو يسمع عنها ويتابعها عن قرب.

عاش زنكي مع القادة أمثال: كربوقا وجكرمش وجاولي سقاو، ومودود وغيرهم، وهم يقاتلون في كل مكان، وبالتأكيد كان يسمع عن صولاتهم وجولاتهم. وكلما كبر ، كبرت معه طموحاته وأحلامه، وكان يُمني نفسه أن يكون في يوم من الأيام مثلهم، ولم لا وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر أستاذ كل أولئك القادة، وفوق هذا وذاك مملوك سلطان السلاجقة حينئذ ملكشاه وقسيمه وحاجبه.

كبر عماد الدين، وهو ابن ذلك العصر ، عصر الجندية والعسكرية، وحمل السلاح، سار في هذا الدرب، وكبرت معه أحلامه حتى أصبحت عبئاً ثقيلاً عليه، لاسيما عندما كان يتنقل من قائد إلى قائد. حتى شعر أن الطريق مسدودة أمامه، وأن الفرصة لن تأتيه أبداُ. ولكن عندما واتته الفرصة بأن يكون من أولئك القادة، لم يتركها تفلت من يديه، بل عض عليها بالنواجذ، فكان النجاح حليفه في كل خطوة من خطواته، وكان الانتصار نصيبه في كل معركة يخوضها حتى أخذ الكثيرون يتقربون إليه ويسعون لكسبه إلى جانبهم.

عماد الدين زنكي هو ابن عصر الأتابكية، الذي يتزوج فيه قائد الجيش من زوجة السلطان السابقة بعدما يطلقها، ويربي أولاده، ويحظى بلقب «الأتابك» أي الأمير الوالد، فينال عماد الدين هذا اللقب، كما سنرى في هذا الكتاب، ويحظى بكل مميزاته هذا الشرف.

عماد الدين زنكي هو ابن الأتابكيات التي أصبحت مع مرور الوقت دويلات أو إمارات صغيرة، يتوارثها أبناؤه من بعده، لاسيما بعد انفراط عقد دولة السلاجقة، فأسس أتابكيته الخاصة في الموصل وحلب، التي أصبحت مع مرور الأيام من أقوى الأتابكيات التي يُحسب لها ألف حساب، سواء من قبل الصليبيين أو الأتابكيات المجاورة له.

عماد الدين زنكي هو ابن مرحلة استعادة الأمة لأمجادها الغابرة، واستعادة أحلامها الضائعة، بل هو صانع ذلك المجد، ومؤسس ذلك الحلم، الذي كان في يوم من الأيام بعيد المنال، ثم تحول في أحد الأيام إلى حقيقة، وهو من حوَل المستحيل إلى ممكن، بعدما أقام محور الموصل-حلب، فكان أول لبنة من لبنات الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين، وهو الذي سار على درب من سبقه من القادة أمثال: جكرمش وسقاو ومودود، فجاوزهم ذكاء وقوة، وتمكن من تحقيق الانتصارات المتتالية على الصليبيين، حتى بات اسمه مرعباً بالنسبة إليهم.

عماد الدين زنكي هو ابن مرحلة العودة إلى طريق الانتصارات، وزارع فكرة الجهاد ضد الصليبيين في عقل كل من حوله، وكل رجال عصره، بعد أن حمل الراية من القادة الذين سبقوه، فكانت انتصاراته ملهمة لكل من يؤمن بالجهاد، وطرد الصليبيين.

عماد الدين زنكي هو من حقق حلماً لم يسبقه إليه أحد من عصره أو العصر الذي سبقه. هو من انتزع إمارة الرها من الصليبيين تلك التي كانت أولى الإمارات التي أسسها الصليبيون في المنطقة، وهو الذي هز أركان الصليبين والأوربيين سواء في الشرق أو الغرب بعدما سمعوا بسقوط الرها. وانتزاعها من بين أيديهم. فكانت أول الأحلام الذي تحول إلى واقع تمثل بطرد الصليبيين منها، وهو ما جعلهم يقومون بالحملة الصليبية عُرفت في التاريخ باسم الحملة الصليبية الثانية لكنه اغتيل ولم يشهد تلك الحملة.

عماد الدين زنكي زرع بذرة قتال الصليبيين في عقل ولديه سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، اللذين سيرثانه من بعده ويرثان دولته وفكرته أيضاً، لاسيما نور الدين محمود الذي يحول البذرة إلى أشجار وارفة وحقول غناء، بفضل إخلاصه وتقواه وصلاحه، فيخرج من عباءته صلاح الدين الأيوبي، وهذا لوحده قصة أخرى. لأنه

الوحيد الذي غطى على انتصار عماد الدين إثر تحرير بيت المقدس بعد سنوات طويلة من مقتل عماد الدين.

من أجل كل ذلك.. كان هذا الكتاب في حجمه الصغير، وهو في حقيقته جزء من كتابي «الزنكيون تاريخ دولة وقصة جهاد» عن دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية - الصادر عام ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م. ليعطي صورة ناصعة لدولة عماد الدين زنكي.. فاتح الرها.

وأخيراً فقد قسمت الكتاب إلى بابين، هما الباب الأول: قبل عماد الدين

واحتوى على الفصل الأول : مؤسس العائلة الزنكية، الفصل الثاني : وفاة والد عماد الدين.

أما الباب الثاني فهو: عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث، وضم ثلاثة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن أمراء الموصل، وهم: قوام الدولة كربوقا، شمس الدولة جكرمش، جاولي سقاو، مودود بن التونتكين، جيوش بك، وأخيراً آق سنقر البرسقي، والفصل الثاني بعنوان: عماد الدين.. الأمير، الفصل الثالث: الشهيد.. عماد الدين زنكي.

وأخيراً ..

أسأل الله عز وجل أن يجعل عملي هذا لوجهه الكريم، وأن ينتفع به شباب المسلمين.

إعداد

غانم شيحان جويعد الشمري

عضو الجمعية التاريخية الكويتية



الباب الأول: قبل عماد الدين.

الفصل الأول : مؤسس العائلة الزنكية.

الفصل الثاني : وفاة والد عماد الدين.

الفصل الأول

مؤسس العائلة الزنكية

عماد الدين زنكي هو الابن الوحيد لآق سنقر بن عبد الله آل ترغان وهو يعتبر أصل البيت الزنكي، وتعود أصوله إلى قبائل الساب[١] التركمانية، ويلقب بأبي سعيد وهو من أصحاب السلطان السلجوقي[٢] ركن الدين ملكشاه[٣] بن ألب أرسلان وأترابه[٤]، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخص أصدقائه[٥].

ويعتبر آق سنقر مملوكاً لدى ملكشاه[٦]، بعدما منحه أبوه السلطان ألب لأرسلان لابنه ملكشاه عندما كان صغيراً، ثم نشآ، وكبرا معاً، وهو ما جعل آق سنقر يبلغ منزلة رفيعة لدى ملكشاه عندما تولى السلطة عام ٤٦٥هـ بعد أبيه ألب أرسلان، بل أصبح من كبار أمرائه، حتى أنه كان يعتمد عليه في كثير من أمور دولته، وصار عماد السلطان

---

(١) بعض المؤرخين يرسمونها: السبا يو.

(٢) جاء اسم السلاجقة: سلجوق بن دقاق الذي وحَّد أبناء قبيلته في النصف الثاني من القرن الرابع، فنسبوا إليه وسموا بالسلاجقة. نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ص٤١-٤٢.

(٣) ملكشاه: ولد السلطان ملكشاه في عام ٤٤٧هـ وتوفي عام٤٨٥هـ. الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية بيروت ج٣ ص٣٧٦، ابن خلكان: الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٨م،ج٤ ص٤٨٥.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٩م ص٤.

(٥) طقوش:محمد سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس بيروت ١٩٩٩، ص٤٣ نقلاً عن ابن العديم ص١٩٥٤.

(٦) مصطفى: شاكر ، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ج٢ ص٧٣٩-٧٤٠.

في المهمات[١]، وعلتْ منزلته، فعيَّنه حاجباً له ولقبه بـ «قسيم الدولة» أي الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة مصونة لا تُعطى إلا لمستحقيها[٢]، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، كما أنه كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد،وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده[٣].

ولعل من أهم الأسباب التي دعت ملكشاه منحه هذا اللقب هو محبة السلطان له، وانتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة، علاوة على أنه أدى خدمات جليلة للسلطان ملكشاه[٤]. وفي عام ٤٧٧هـ أمر ملكشاه، أق سنقر بالمسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة[٥] إلى الموصل والاستيلاء عليها من شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، وفي عام ٤٧٩هـ اشترك آق سنقر مع السلطان

(١) مصطفى:نفسه ج٢ ص٧٤٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٤.

(٣) ابن الأثير: نفسه ص٤.

(٤) الصلابي: علي محمد، الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م ص ٢٥-٢٦ نقلاً عن إمارة حلب، محمد الضامن ص ١٣٦.

(٥) عميد الدولة بن فخر الدولة: هو أبو منصور محمد بن محمد فخر الدولة بن جهير التغلبي الموصلي، ولد في محرم ٤٣٥هـ، وتوفي سنة ٤٩٣ هـ. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت.

ملكشاه في الاستيلاء على حلب[١] من سالم بن مالك بن بدران العقيلي[٢]، وجعل معه أربعة آلاف فارس[٣]، ثم قلد السلطان ولايتها لآق سنقر وعمَّرَها وأحسَن السيرة فيها، كما ولاه حماة[٤] ومنبج[٥]واللاذقية[٦] بعدما أشار عليه في ذلك وزيره نظام الملك[٧]، ومن أهم الأسباب التي دعت نظام الملك يقدم هذا الاقتراح ويقع اختياره

(١) حلب: حافظت على اسمها دونما تبديل، فقد وردت في نصوص ماري باسم حالاب، وخلاب وخلايا وحلبا، وفي النصوص المصرية القديمة خرب، وفي رسائل تل العمارنة حلب، وفي نصوص أوغاريت حلب، وفي النصوص الآرامية الصيغة نفسها، ووردت في النصوص الحثية باسم حلب وخالاب وحلباس، وسماها الهلنستيون بيروا، واستردت اسمها الأصيل بعد الفتح العربي. ابن العديم: الصاحب ابن العديم: كمال الدين بن أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب للصاحب، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١ ص٣٢.

(٢) مالك بن بدران العقيلي: هو شمس الدولة صاحب قلعة جعبر وتعرف قديمًا بقلعة دوس وقيل دوسر، توفي عام ٥١٩ هـ .أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٠.

(٣) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٢٥.

(٤) حماة: تقع حماة وسط سورية وهي على ارتفاع ٣٠٨م فوق سطح البحر، في وهدة سحيقة من وادي العاصي، وتبعد عن دمشق ٢٠٩كم وعن حلب ١٤٣كم. الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م، ج٢ ص ٣٠٠، سبانو: أحمدغسان، مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٤م، ص ٢٢-٢٣.

(٥) منبج: قيل أول من بناها كسرى لما غلب على الشام، وسماها (من به) أي أنا أجود، فعربت فقيل منبج، وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض، كان عليها سور مبني من الحجارة، بينها وبين الفرات ٣ فراسخ، وبينها وبين حلب ١٠ فراسخ. الحموي: المعجم ج٥ ص٢٠٥- ٢٠٦.

(٦) أبو شامة: الروضتين م ١ج١ ص١٤٠، واللاذقية: هي مدينة في ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص، وهي غربي جبلة، بينهما ستة فراسخ، وهي الآن من أعمال حلب «أي في زمن ياقوت الحموي». الحموي: المعجم ج٥ ص٥.

(٧) ابن الأثير: الباهر ص٨ ، نظام الملك هو أبو علي الحسن بن إسحاق، كان عالماً فقيهاً خيراً متواضعاً عادلاً، كان من خيار الوزراء، ولد بطرسوس عام ٤٠٨هـ ، وقتل على يد صبي ديلمي عام ٤٨٥هـ. ابن الأثير: الباهر ص٩، ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، اعتنى به الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٦م، ج٨ ص٣٤٩.

على قسيم الدولة هي[١]:

- كسب ثقة السلطان ومحبة آق سنقر.
- إبعاد آق سنقر عن مرافقة السلطان.
- عدم المساس بثقة السلطان به.

لم يكن الوضع في حلب مطمئناً، وإنما كانت تعمه الفوضى وعدم الاستقرار نتيجة لصراع الحكام المتنافسين مع بعضهم بعضاً، فضلاً عن الدسائس والمؤامرات مع القوى الخارجية، وكان من الطبيعي أن يتغافل الحكام عن أوضاع البلاد الداخلية[٢].

وقد بدأت، مع تولي آق سنقر الحكم في حلب، مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية[٣] لها وأزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام، ويعد آق سنقر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب، بعدما كانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق[٤]، واستطاع خلال السنوات الثماني من حكمه أن ينقذ البلاد من الفوضى العارمة والصراعات السياسية والعسكرية، وأن يعيد الأمور إلى نصابها[٥].

---

(١) طقوش: الزنكيين ص٤٤ نقلًا عن إمارة حلب، محمد الضامن ص ١٣٦.

(٢) طقوش: نفسه ص ٤٧.

(٣) القبائل العربية التي حكمت الجزيرة وشمالي الشام منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي هي : الدولة العقيلية نسبة إلى بني عقيل، الدولة المرداسية في حلب وبعض الأجزاء الشمالية من الشام والجزيرة أسسها صالح بن مرداس، ودولة بني منقذ في شيزر وكفر طاب. طقوش: حاشية نفسه ص ٤٦.

(٤) الصلابي: الزنكية ص٢٦.

(٥) طقوش:الزنكيين ص٤٦.

استدعاه السلطان بعد ذلك إلى العراق، فقدِم عليه في تجمّل عظيم، ولم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعودة إلى حلب فعاد إليها، وسلمه منبج واللاذقية[١]، وأقطع مدينة الرها لمجاهد الدولة بزان[٢]، وأقطع أنطاكية للأمير ياغيسيان[٣] ولما استقر بالشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده.

سيرة قسيم الدولة:

كان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل تام ورخص شامل وأمن واسع، وأقام الحدود الشرعية وطارد اللصوص وقطاع الطرق، وقتل المفسدين. وكان كلما سمع بمفسد أو قاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة، حتى أنه أصدر قراراً «بتحمل كل قرية المسؤولية متى ما تعرضت أي قافلة للسرقة والنهب في أراضيها»، لذلك كانت كل قرية حريصة على عبور جميع القوافل أراضيها سالمة، بل إنها كانت تحرس القوافل ومن فيها إلى أن يرحلوا عنها، لهذا انتشر الأمن في بلاده[٤]. قال ابن واصل: «.. ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة، وأقيمت الحدود الشرعية، وعمرت الطرقات، وأمِنت السبل، وقُتل المفسدون بكل فج، وكان كلما سَمِع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة»[٥].

---

(١) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم،مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الدكتور جمال الدين الشال، دار القلم الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، الإدارة العامة للثقافة، الناشر دار القلم، القاهرة ج١ ص١٩.

(٢) مجاهد الدولة بزان: هو أبو الفوارس مجاهد الدولة بزان بن مامين الكردي، توفي عام ٥٥٥هـ، وهو أحد مقدمي أمراء الأكراد. ابن واصل: الكروب ج١ ص١٩، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص٣٤٣.

(٣) ابن واصل: الكروب ج١ ص١٩، وياغيسيان ضبطت بأكثر من طريقة مثل: يا غي سيان، يغيسيان.

(٤) ابن الأثير: الكامل ص١٥٢١.

(٥) ابن واصل: الكروب ج١ ص١٩.

انتهج آق سنقر سياسة حازمة، فسادَ الاطمئنان في بلاده والأمن، وانتشر العمران وانتعشت التجارة، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الأوضاع أن أرسل منادياً ينادي أن لا يغلق أحد بابه، وأن يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً، وعاملَ أهل حلب بالحسنى حتى توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر.[(١)]!. وذات مرة خرج متصيداً، فمر على فلاح وقد فرغ من عمله، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره وقال له: «ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث؟ فقال:«بلى والله، حفظ الله قسيم الدولة، والله لقد أَمِناّ في أيامه من كل ذاعر ومفسد، وما رفعتُ هذا خوفاً عليها ممن يأخذها، وإنما ههنا دويبة يقال لها ابن آوى، إذا تركنا هذه العدة ههنا جاءت وأكلت هذه الجلود التي عليها»، فلما عاد قسيم الدولة أمر الصيادين وبثهم في أقطار حلب لصيد بنات آوى حتى أفنوها من ضواحي حلب[(٢)]. كما أنه راسل عمال الأطراف التي خضعت لحكمه وطلب منهم أن يحذوا حذوه، وتابع أعمالهم بنفسه. ونتيجة لاستتباب الأمن في أرجاء إمارة حلب كافة، نشطت التجارة وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات ورخصت الأسعار[(٣)]، واستقر الوضع الاقتصادي، خصوصا أن رأس المال يبحث دائما عن الاستقرار، وتداعى الناس إلى حلب للكسب والعيش برغد.

وذكر ابن القلانسي في حديثه عن قسيم الدولة في حلب أنه: «أحسن السيرة فيها، وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة للمترددين فيها، وأقام الهيبة وأنصف الرعية وتتبع المفسدين فأبادهم، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر وتضاعف الثناء

---

(١) الصلابي: الزنكية ص٢٩ نقلًا عن خليل: عماد الدين، عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص٣٥.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٢٦.

(٣) ابن واصل: الكروب ج١ ص١٩.

والشكر[١].

وقال أيضاً: «نهض قسيم الدولة في أثر الحرامية قطاع الطرق، ومخيفي السبيل، فأوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلاً وأسراً، فأمنت السابلة[٢]، واطمأنت السافرة[٣]، وكتب إلى سائر الأطراف والأعمال بتتبع المفسدين، وحماية المسافرين، وبالغ في ذلك مبالغة حَسُن ذكره بها، وعظمت هيبته بسببها، وشاع له الصيت باعتمادها، واحترز كل من كان في ضيعة أو معقل من أن يتم على أحد من المجتازين به أمر يؤخذ به ويهلك بسببه»[٤].

تصرف آق سنقر كحاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهيمه الذاتية نظراً لنشأته في أحضان السلاجقة في فارس، حيث تكوّنت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة[٥].

ويقال أنه قتل زوجته خاتون داية دون قصد، فقد كانت جالسة معه في دار له بحلب وفي يده سكين فأومى بها إليها على سبيل المداعبة والمزاح، فوقعت في مقتلها قضاء وقدراً[٦].

وفي عام ٤٨١هـ جمع عساكره وقصد شيزر[٧]، وضايق صاحبها نصر بن علي بن

---

(١) ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تاريخ أبي يعلي حمزة ابن القلانسي، مكتبة المتنبي، القاهرة ص ١١٩.

(٢) السابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حوائجهم، والجمع السوابل. ابن منظور:إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ، ٢٠٠٣م، ج٤ ص٤٨٤.

(٣) السافرة: أي المسافرون، ابن منظور: نفسه ج٤ ص ٥٩٦.

(٤) ابن القلانسي: الذيل ص ١٢٠.

(٥) طقوش: الزنكيين ص٤٨ نقلًا عن مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية للدكتور سهيل زكار.

(٦) ابن القلانسي: الذيل ص ١١٩.

(٧) شيزر: قلعة تشتمل على كور بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، وكانت لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح مرداس، وأول من ملكها من بني منقذ هو الملك علي بن نصر بن منقذ عام ٤٧٤ هـ، وكانت بيد الروم، وتوفي عام ٤٧٥هـ.

منقذ[١]، حتى صالحه وعاد إلى حلب[٢].

وقد جدد آق سنقر عمارة منارة حلب بالجامع عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م، إذ أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب[٣] منارة حلب، وكان في حلب بيت معبد نار قديم، وصار بعد ذلك أتون حمام، فأخذ ابن الخشاب حجارته، وبنى بها المنارة، فأبلغ بعض حساده آق سنقر بذلك، فأحضره وقال له: «هدمت معبداً هو لي وملكي»، فقال: «أيها الأمير هذا معبد للنار، وقد صار أتوناً، فأخذت حجارته لأعمِّر معبداً للإسلام، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له، وكتبت اسمك عليه، وجعلت الثواب لك، فإن رسمتَ[٤] غرمتُ ثمنه لك ويكون الثواب لي فعلتُ»، فأعجب الأمير آق سنقر بذلك واستصوب رأيه، وقال: «لي الثواب وافعل ما تريد»، فشرع في عمارة المنارة وانتهى منها في عام ٤٨٣هـ[٥].

كان إخلاص آق سنقر للسلطان ملكشاه لا حدود له، وبسبب ذلك نال غضب تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان شقيق السلطان[٦]، ففي عام ٤٨٤هـ سار تتش ومعه قسيم الدولة إلى طرابلس، فحاصرها وكان صاحبها القاضي ابن عمار، وقد رأى جيشاً

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، الحاشية ج١ ق١ ص ١٢٥-١٢٦.

(١) نصر بن علي بن منقذ: هو نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم، ملك بعد أبيه أبي الحسن علي، توفي بشيزر عام ٤٩١هـ. أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص٣١٩.

(٢) ابن القلانسي: الذيل ص ١٢٠.

(٣) القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب. ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٠.

(٤) رَسْمُ الدار: ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض، والجمع أرسم ورسوم. ابن منظور: اللسان ج ٤ ص ١٤٤.

(٥) ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٠.

(٦) تتش بن ألب أرسلان: توفي عام ٤٨٨هـ. ابن الأثير: الكامل ص١٥٢١.

كبيراً لا يمكنه منعه من الاستيلاء على مدينته، فخرج إليهم وعرض عليهم منشوراً من السلطان بإقراره على طرابلس.

فقال آق سنقر لتتش: «لا أقاتل من بيده تلك المناشير». فأغلظ عليه تتش وقال: «وهل أنت إلا تابع لي!». فرد قسيم الدولة: «أنا تابعك إلا في مخالفة السلطان»[١].

رجع تتش إلى دمشق وذهب آق سنقر إلى حلب، وأصبح الخلاف بينهما بارزاً للعيان، لا يخفى على أحد، لهذا أدرك آق سنقر ضرورة أن يقوي نفوذه في المنطقة ويحد من قوة تتش، ووضع لذلك هدفاً وهو ضم شيزر إلى أملاكه قبل أن يستولي عليها تتش[٢].

وبلغت الأمور بين الطرفين إلى حد لا يمكن السكوت عنه، لهذا سعى ملكشاه إلى وضع نهاية لهذا الصراع، فجمع ولاته من كل بلاد الشام، وبحث معهم جميع القضايا المتعلقة، فعرض تتش خلافه مع آق سنقر واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية، وقام آق سنقر مدافعاً عن نفسه، متهماً تتش بالكذب، واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له، كما رفض مساعيه للتخلص منه[٣].

وفاة ملكشاه:

وفي ٣ شوال ٤٨٥هـ توفي السلطان السلجوقي ملكشاه، وترك عند وفاته أولاداً عدة، اشتهر منهم أربعة هم: بركيارق[٤] وكان في الحادية أو الثانية عشرة، محمد وكان أصغر من بركيارق بستة أشهر، وسنجر في الثامنة من عمره، ومحمود في الرابعة.

---

(١) ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٢.

(٢) الصلابي: الزنكية ص٣١ نقلًا عن بغية الطلب في تاريخ حلب ص ٥٣.

(٣) طقوش: الزنكيين ص٥٣ نقلًا عن بغية الطلب ص ١٩٥٦.

(٤) بركيارق: تضبط أحياناً بكياروق و بكيارق.

وبعد وفاة ملكشاه كتمت زوجته خاتون الجلالية[١] خبر موته، وأرسلت إلى الخليفة العباسي المقتدي في الخطبة لولدها فأجابها، وشرط أن يكون اسم السلطنة لولدها والخطبة له، فوافقت على ذلك، فخطب لولدها محمود يوم الجمعة ٢٢شوال ٤٨٥هـ، ولقب بناصر الدنيا والدين، وبعثت برسالة إلى أصفهان من أجل القبض على بركيارق ووضعه في السجن، كي لا ينازع ولدها على السلطنة[٢]. في أثناء ذلك طمع شقيق السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بالسلطنة، وكان يملك مدينة دمشق وما جاورها مثل طبرية والبيت المقدس بعد تحقيقه انتصارات عدة في نصيبين[٣] ضد الأمير العربي إبراهيم بن قريش[٤]، وفي ديار بكر[٥] وآمد[٦]، وبالتالي قويت شوكته وكثرت عدته، وحدَّث نفسه بالسلطنة[٧].

تغيرت الأحداث بعد ذلك، إذ تمكن المماليك، وقيل ابن نظام الملك، من إخراج ركن الدين بركيارق[٨] من السجن، وخطبوا له بأصفهان، حتى أنه لم يكن من السهل أن يحمل رأسه الصغير تاجه المثقل بالجواهر[٩]، كما طالب السلطة لنفسه، فدارت

(١) خاتون الجلالية : توفيت عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .حسن: إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، الكتاب الذهبي، مؤسسة روز اليوسف ٢٠٠٣م، ج٤ ص ٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٥١٥-١٥١٧، الحنبلي: شذرات ج٣ ص ٣٧٦، ابن خلكان: الأعيان ج٤ ص٤٨٥.

(٣) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار ٩ فراسخ، وبين الموصل ٦ أيام، وبين دنيسر يومان عشرة فراسخ .الحموي: المعجم ج٥ ص ٢٨٨.

(٤) إبراهيم بن قريش: قال عنه ابن واصل :«كان محبوباً كريمًا». ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٢.

(٥) ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط. الحموي: المعجم ج٢ ص٤٩٤.

(٦) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً. الحموي: نفسه ج١ ص ٥٦.

(٧) ابن القلانسي: الذيل ص١٢٣- ١٢٤.

(٨) بركيارق: بركيارق بن ملكشاه بن ألب أرسلان، توفي عام ٤٩٨هـ ، وكانت مدة سلطنته ١٢ عاماً وأربعة أشهر. أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٤.

(٩) حسن: تاريخ ج٤ ص ٤٤.

رحى الحرب بين جند السلطان محمود ناصر الدنيا والدين، وجند السلطان ركن الدين بركيارق، فحلت الهزيمة بجند محمود، لكن خاتون أم محمود،لم تيأس فعملت بالدسائس ضد بركيارق، واندلعت حرب أخرى بينهما، فكرر الأخير انتصاره، وفي ١٤ محرم ٤٨٧هـ/ ٣ فبراير١٠٩٤م نودي به سلطاناً في بغداد. وفي اليوم التالي لتولي بركيارق مقاليد السلطنة، توفي الخليفة المقتدي بالله فجأة، وخلفه ولده العباس أحمد المستظهر بالله(١). ووقف آق سنقر في البداية إلى جانب تتش وقاتل معه، وقد قبِل مُكرهاً على الاعتراف بسلطانه، فخطب له في بلاده، وأبدى استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه، وتمكن تتش من الاستيلاء على معظم بلاد الجزيرة(٢) والموصل.

وعندما ظهر بركيارق على مسرح الأحداث تخلى آق سنقر عن تتش، ووقف إلى جانب ابن صديقه وفاء له، وعندما سئل عن ذلك قال: « إنما أطعنا هذا الرجل أي يعني تتش، لننظر ما يكون من أولاد صاحبنا، والآن فقد ظهر بركيارق والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه»(٣). بينما قال ابن العديم(٤): «..وكان سبب نفار قسيم الدولة تقريب تاج الدولة ياغيسيان وميله إليه، وقيل لأنه لم يولّه شيئاً من البلاد التي افتتحها»(٥).

---

(١) حسن: نفسه ج٤ ص ٤٥، ابن الأثير: الكامل ص ١٥٢٦.

(٢) الجزيرة: هي جزيرة أقور، وهي بين دجلة والفرات، مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، ومن أمهات مدنها: حران والرها والرقة ورأس العين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميافارقين والموصل وغير ذلك. الحموي: المعجم ج٢ ص١٣٤، ابن الأثير: حاشية الباهر ص٧.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٣.

(٤) ابن العديم: هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، ولد في مدينة حلب في ذي الحجة ٥٨٨هـ، وقد وافته المنية في مصر يوم ٢٠ جمادي الأولى ٦٦٠هـ. ابن العديم: مقدمة الزبدة ص١٣-١٩.

(٥) ابن العديم: نفسه ج١ ص٣٣٠.

قام تتش بثورة على ابن أخيه بركيارق وتمكن من هزيمته واعتقاله، وسجنه لدى السلطان محمود، ويبدو أن الحظ كان يبتسم لبركيارق، إذ أنه بعد أسبوع واحد فقط توفي محمود بعدما أصيب بالجدري، فأُخرج بركيارق من السجن وأُجلس على كرسي السلطنة من جديد، ولم يتخل الحظ عنه أيضاً، فعندما أصيب بالمرض الذي أصاب أخاه محمود أي الجدري برئ منه، وبعد ذلك نجا بأعجوبة من الموت عندما تعرض للطعن من قبل رجل من الباطنية فشفي منه.

الفصل الثاني

وفاة والد عماد الدين

انبسطت يد بركيارق بعودة آق سنقر واستقامت أحواله، وطلب منه أن يسير إلى حلب والرها وحران، بينما اضطر تتش إلى التوقف عن القتال، وانسحب إلى الشام، وتحالف مع صاحب أنطاكية بعد أن زوَّج ابنه رضوان[١] من ابنته[٢]، كما جند قوات إضافية من بني كلاب، والتقى جيش آق سنقر وجيش تتش في ٩ جمادي الأولى مايو٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م بالقرب من حلب عند قرية تسمى سبعين[٣]، ودارت الدوائر على آق سنقر، وأخذ أسيراً بعد هزيمته في المعركة.

ورغم أن قسيم الدولة كان يدرك موته لا محالة بعد أن وقع في يد تتش، إلا أن الرعب لم يدب في أوصاله ولم يتراجع عن موقفه قيد أنمله، وظل ثابتاً لا يتزحزح عن رأيه، وعندما سأله تتش لو ظفرتَ بي ما كنتَ صنعت؟! ورغم صعوبة هذا السؤال في مثل هذا الموقف إلا أن قسيم الدولة كان صادقاً مع نفسه قبل أن يكون صادقاً مع خصمه، وقال من دون تردد : «كنت أرى قتلك»[٤].

---

(١) رضوان بن تتش : هو صاحب حلب فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي، توفي بجمادي الآخرة ٥٠٧هـ. ابن خلكان: الأعيان ج١ ص٢٨٣-٢٨٤، ابن الأثير: الكامل ص١٥٩٣.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص ١٣٠-٣٣١.

(٣) ابن العديم: نفسه ج١ ص ١٣٢ وسبعين: قرية بباب حلب، كانت إقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة، وإياها عنى بقوله: أسير إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه. واسمها الآن تل سبعين، وهي قريبة من سبخة الجبول. الحموي: البلدان ج٣ ص١٨٥، ابن العديم: نفسه ج١ ص١٤٣.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٥، تاريخ أبي الفدا ج١ ص٢٠.

فقال تتش: «فأنا أحكم على قتلك». فقتله صبراً[١] وتسلم قلعة حلب في يوم الاثنين ١١ جمادي الأولى ٤٨٧هـ، وحمل رأسه إلى حلب ودمشق[٢] ودفن رأس آق سنقر خارج حلب[٣]، وتحديداً في القبة التي على سطح جبل قرنبيا[٤].

وعندما ملك ابنه عماد الدين، نقل بقايا أبيه فدفنها بجانب مدرسة الزجاجين في حلب[٥].

وبموت آق سنقر انتهت مرحلة مهمة من مراحل الحكم السلجوقي المباشر على حلب نعمت فيها بالاستقرار والأمان اللذين لم تعرفهما منذ أكثر من قرن[٦].

صفات آق سنقر:

اشتهر قسيم الدولة من خلال المدن على حكمها وسادها بالتسامح والاهتمام بالرعية، فصار مضرب الأمثال في الإخلاص والاستقامة[٧]. وكان شجاعاً عادلًا، وكان ملوك السلاجقة يحترمونه[٨]. قال ابن خلكان: «رأيت عند قبره خلقاً كثيراً يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم على ذلك وقفاً عظيماً يفرق

---

(١) قتله صبراً: الصبر أي نصب الإنسان للقتل، وصبر الإنسان على القتل: نصبه عليه، يقال قتله صبراً وقد صبره عليه، والصبر: الإكراه، فيقال قتل فلان صبراً. ابن منظور: اللسان ج٥ ص٢٦٧.

(٢) ابن العديم: الزبدة ج١ ص ٣٣٣.

(٣) الصلابي: الزنكية ص ٣٢ نقلًا عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص٥٥.

(٤) مشهد قائم بين حلب وقرية النيرب. ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص٣٣٣.

(٥) ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٥٦، الصلابي: الزنكية ص٣٣، ابن العديم: نفسه ج١ ص٣٣٣.

(٦) طقوش: الزنكيين ص٥٦.

(٧) العريني: السيد الباز، الشرق الأدنى في العصور الوسطى- الأيوبيون، دار النهضة العربية ص١٨.

(٨) سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر بن قزأ وغلي بن عبد الله، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق الدكتور كامل سلمان الجبوري، والدكتور قيس كاظم الجنابي، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٣م، ج١٣ ص٢٢٧.

عليهم»[١] وقال ابن القلانسي[٢] عن سياسته الداخلية: «..وأحسن فيها السيرة، وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة للمترددين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر وتضاعف الثناء والشكر، فعمرت السابلة للمترددين من السفر، وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار»[٣].وقال ابن العديم: «أحسن قسيم الدولة في حلب السيرة وأجمل السياسة وأقام الهيبة، وأقنى قطاع الطريق، وتتبع الذعار في كل موضع، فاستأصل شأفتهم»[٤]. وتحدث عنه ابن كثير بقوله: «كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة، وكانت الرعية في أمن وعدل ورخص»[٥]. وذكر ابن واصل: «كان عنده وفاء عظيم وحسن عهد، ومروءة غزيرة، وإنما كان قتله وفاء لسلطانه ورب نعمته، وحفظاً لولده من بعده»[٦].

(١) ابن خلكان: الأعيان ج٣ ص٢٤٠.

(٢) ابن القلانسي: هو عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجده أبو يعلى حمزة، وهو صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق، وتوفي في رمضان٦٢٠هـ، ودفن بجبل قاسيون. أبو شامة: الروضتين م٣ ج٥ ص٢٠٤.

(٣) الصلابي: الزنكية ص ٢٨ نقلًا عن ابن القلانسي: الذيل ص١٩٦.

(٤) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٢٦ .

(٥) ابن كثير: البداية ج٨ ص٣٥٥.

(٦) ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٧.



الباب الثاني: عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث

الفصل الأول

أمراء الموصل

ولد عماد الدين زنكي عام ٤٧٧هـ، وكان الابن الوحيد لوالده آق سنقر الذي تولى حلب عام ٤٧٩هـ أي بعد سنتين من مولد ابنه، فكانت حلب مهد طفولته، وقضى بها أيامه الأولى[(١)].

بعدما أخلص آق سنقر للدولة السلجوقية، وتوفي دفاعاً عنها، لم يترك سلاطين هذه الدولة ولده عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره، وإنما أولوه الرعاية الكاملة، حيث كان يقيم تحت رعاية مماليك أبيه وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب لآق سنقر.

كان زنكي حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين معتدل الطول، وخط الشيب رأسه في سني حكمه الأخيرة[(٢)]، شخصيته قوية، شديد الهيبة.

١- قوام الدولة كربوقا:

عندما تولى أمر الموصل قوام الدولة كربوقا عام ٤٨٩هـ[(٣)]، باسم السلطان

---

(١) الصلابي: الزنكية ص٣٤ نقلًا عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٥٧.

(٢) ابن العمري: شهاب الدين ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تاريخ الحروب الصليبية والدول المتأخرة، السفر السابع والعشرون،تحقيق د. حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي أبو ظبي ٢٠٠٤م، ص٢٤.

(٣) قوام الدولة أبو سعيد كربوقا : توفي في ذي القعدة ٤٩٥هـ، عند مدينة خوي. الغامدي: مسفر سالم، في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة ١٩٨٦م، ص١٧٨، ابن الأثير: الكامل ص١٥٥٠- ١٥٥١.

بركيارق، بعد مقتل تتش، أولى عماد الدين زنكي اهتماماً خاصاً، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضاره إليه[١] وقال لهم: «هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه»[٢].

ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آق سنقر في نفوس الكثير من التركمان، وعرف ما يكنون له من الولاء والطاعة، فحرص على أن يضم ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا خلال ملازمته لآق سنقر أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبه للاستعانة به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلاً، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له بالموصل إلى أن توفي كربوقا عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م[٣].

٢- شمس الدولة جكرمش:

عندما استلم صاحب جزيرة ابن عمر[٤] شمس الدولة جكرمش ولاية الموصل (٤٩٥ - ٥٠٠هـ) بعد نزاعه مع صاحب ماردين سقمان بن أرتق الذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه، وعلى معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة، توثقت العلاقة بينه وبين زنكي، إذ قربه وأحبه واتخذه ولداً، وظل الأخير ملازماً له حتى وفاته عام ٥٠٠هـ[٥].

---

(١) الصلابي: الزنكية ص٣٧.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٦.

(٣) الصلابي: الزنكية ص٣٧ نقلًا عن ابن الأثير: الباهر ص١٦.

(٤) جزيرة ابن عمر: بلد فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأول من عمرها هو الحسن بن عمر التغلبي. الحموي: المعجم ج٢ ص١٣٨، ابن حوقل: أبو القسم النصيبي، كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، مطابع ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٨م ص ٢٢٥.

(٥) طقوش: الزنكيين ص٨٤.

وقام جكرمش بما قام به سلفه نفسه وهو محاربة الصليبيين، وتمكن من الانتصار عليهم في معركة عنيفة عند نهر بليخ[١]، وذلك في شعبان ٤٩٧هـ/ مايو١١٠٤م، فسميت هذه المعركة بـ «البليخ»، وتسمى أيضاً بـ «حران». لكن هذا الانتصار كان له معنى آخر، إذ أنه تحقق بعدما اتحد بالفعل جكرمش مع سقمان، وتعاهدا وتعاقدا على المجاهدة في أعداء الله الفرنج، وبذل الطاقة والاستطاعة في حربهم، والتقوا في ١٩ شعبان، فنصر الله المسلمين عليهم وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة كثيرة[٢].

ولعل هذا الانتصار ساهم في وقف زحف الصليبيين على حساب المسلمين وقضت على أحلامهم في التوسع نحو العراق، بل إنها حطمت أسطورة أن جيش الصليبيين لا يقهر، وقضت على رغبة بوهيمند في أن يجعل من أنطاكية مملكة صليبية كبيرة[٣]. وهكذا تحقق أول نصر حاسم على الصليبيين، وقد فتح هذا النصر الطريق لظهور قيادات وتحالفات إسلامية وجهت الضربات المتتالية للصليبيين في الشام والجزيرة ومنعتهم من تحقيق مطامعهم[٤]. ولا شك أن عماد الدين زنكي بدأ يعي جيداً كل تلك الأحداث والمعارك التي تقع بالقرب منه.

صراع السلاطين:

تنافس السلطان بركيارق والسلطان محمد، على الحكم ونشب بينهما قتال عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م، ثم تصالحا في العام التالي، فاحتفظ بركيارق ببغداد وهضبة فارس الغربية، بينما حصل محمد على شمالي العراق والجزيرة، وصارت له حقوق السيادة

(١) بليخ: اسم نهر بالرقة. الحموي: المعجم ج١ ص٤٩٣.

(٢) ابن القلانسي: الذيل ص١٤٣.

(٣) الغامدي: الجهاد ص١٤٢ نقلًا عن ابن القلانسي: نفسه ص١٤٣.

(٤) ابن القلانسي: نفسه ص١٤٣.

على ديار بكر وبلاد الشام، أما الأخ الثالث سنجر[(١)] فإنه حاز على خراسان وشرقي فارس[(٢)]، إلا أن جكرمش الذي كانت لديه نزعات استقلالية وتنامي قوته العسكرية، رفض أن يسلم السلطان محمد مدينة الموصل التي كانت من نصيبه، وأعلن أنه لا يدين بالولاء إلا لبركيارق، ولن يسلمها إلا إليه، عندئذ تقدم السلطان محمد نحو المدينة وحاصرها لانتزاعها منه[(٣)].

وفي ربيع الآخر٤٩٨هـ توفي السلطان بركيارق، إلا أن هذه الوفاة لم تؤثر في تغيير موقف جكرمش في بادئ الأمر، لكنه خضع فيما بعد للسلطان محمد، لاسيما أنه لم يعد له عذر يتذرع به بعد وفاة بركيارق، ويبدو أن جكرمش شكّل عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م حلفاً إسلامياً لمحاربة الصليبيين ضم عدداً من الأمراء، وذلك بناء على طلب السلطان محمد[(٤)]، لكن هذا الحلف لم يحقق الهدف المنشود.

٣- جاولي سقاو:

انزعج السلطان محمد من النزعات الاستقلالية لجكرمش فولّى جاولي سقاو[(٥)] الموصل في محرم ٥٠٠هـ/ مايو ١١٠٦م ، وأرسله إلى جكرمش، إلا أن الأخير رفض

---

(١) سنجر بن ملكشاه: توفي بخراسان في ربيع الأول ٥٥٢هـ/ ابريل ١١٥٧م، وقيل أن اسمه أحمد فغلب عليه اسم سنجر ؛ لأنه ولد في سنجار. تاريخ أبي الفدا ج٢ ص٨-٩، العمري: المسالك ص٤٥، ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج٥ ص٣٢٧.

(٢) طقوش: الزنكيين ص٦٥.

(٣) طقوش: نفسه ص٦٦.

(٤) طقوش: نفسه ص٦٦.

(٥) جاولي سقاو: ضبطته المصادر العربية بأكثر من طريقة مثل: سقاوة، وسقاوو، وابن الأثير ضبط الاسم على الشكل الأخير، كانت له السيطرة على البلاد الواقعة بين خوزستان وبلاد الرافدين وبلاد فارس. الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص١٧٩.

تسليمها له[١]، ودارت بينهما معركة خارج الموصل، وقع على إثرها جكرمش في الأسر ثم مات خلاله، ولما كان سكان الموصل يحبونه نصّبوا عماد الدين زنكي عليهم وهو صغير وخطبوا له[٢].

خلال هذه الظروف استنجد زنكي بالسلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول الذي دخل الموصل وسط ترحيب السكان به، فانسحب جاولي من المدينة إلى سنجار، لكن قلج أرسلان غرق في نهر الخابور[٣] بعد خسارته المعركة التي اندلعت بينهما، فدخل جاولي الموصل لكن حكمه اقترن بالوحشية، ما جعله مكروهاً بين الناس[٤]، كما أنه أعلن استقلاله بعد ذلك عن السلطان محمد الذي عهد إلى أحد رجاله في ذي القعدة ٥٠١هـ/ يونيو ١١٠٨م وهو الأمير مودود بن التونتكين، بطرد جاولي من الموصل، وأخذ الحكم منه، اضطر عندها جاولي الفرار إلى الشام[٥]، والتحالف مع الصليبيين .وكان زنكي خلال هذه الفترة قد بلغ مرحلة الشباب فبدت عليه علامات الشهامة والشجاعة، وقد أعلن انفصاله عن جاولي.

٤- مودود بن التونتكين :

عندما دخل الأمير مودود بن التونتكين الموصل في صفر ٥٠٢هـ/ سبتمبر ١١٠٨م، وسط ترحيب السكان به، أصبح زنكي من كبار أمرائه وحصل على المزيد من الإقطاعات[٦]. وقد أثبت عماد الدين بهذا الموقف تمسكه بولائه للسلطان وتأييده

---

(١) طقوش: الزنكيين ص٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٥٧٢.

(٣) نهر الخابور:نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة وهي ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد.الحموي: المعجم ج٢ ص٣٣٤.

(٤) طقوش: الزنكيين ص٦٨.

(٥) الصلابي: الزنكية ص٣٨.

(٦) الصلابي: نفسه ص ٣٨ نقلًا عن خليل: عماد الدين ص٣٧.

له، ما كان له أبعد الأثر في توثيق عرى الارتباط بينهما. ظل الأتابك[١] مودود بعد توليه إمارة الموصل متمسكاً بفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه السلطان محمد السلجوقي[٢]، ورغم قصر فترة مودود في حكم الموصل، إذ أنها لم تتجاوز السنوات الخمس، إلا أنها كانت زاخرة بالحروب ضد الصليبيين، وأظهر زنكي من البطولات خلالها، ما أكسبه شهرة واسعة لدى المسلمين، فقد شن مودود على إمارة الرها الصليبية ثلاث حملات:

• الحملة الأولى: «في شوال ٥٠٣هـ/ إبريل١١٠٩م، حاصر الرها لمدة شهرين لكنه لم يستطع اختراق تحصيناتها[٣]، وقد سانده في ذلك أمير ماردين إيلغازي[٤] الأرتقي وأمير أرمينية سقمان القطبي المعروف باسم شاه أرمن، وهي المرة الأولى التي يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين[٥].

• الحملة الثانية: في محرم ٥٠٥هـ/ ١١١١م، جمع مودود هذه المرة جميع الأقاليم في دولة السلاجقة، وجاءت هذه الحملة نتيجة للضغوط الشعبية التي نددت بالأوضاع السيئة ودعت إلى الجهاد، لاسيما بعد أن ضاق الأمر بأهل حلب، ومضى بعضهم إلى

---

(١) أتابك: لقب يتكون من لفظين مركبين، أتا أو أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، وأول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك. ابن واصل:حاشية الكروب ج١ ص٣٣، مصطفى: موسوعة، ج٢ ص٧٣٥.

(٢) طقوش: الزنكيين ص٦٩.

(٣) طقوش: نفسه ص٦٩.

(٤) إيلغازي: إيلغازي بن أرتق بن أكسب، حارب الفرنج غير مرة، وأخذ حلب من أبناء رضوان بن تتش، واستولى على ميافارقين وغيرها قبل موته بسنة. الذهبي: شمس الدين محمد أحمد عثمان، سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، قدم له الدكتور سيد علي العفاني، وحققه خيري سعيد، ٢٠٠٨م، ج١٩ ص ٤٣٥-٤٣٦، توفي رمضان ٥١٦هـ / ١١٢٢م بميافارقين. أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل تاريخ أبي الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر ، علق عليه محمود ديوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ج٢ ص٥٩.

(٥) طقوش: الزنكيين ص٦٩، نقلًا عن نور الدين محمود ص١٢٣.

بغداد، واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبة، مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج[١]، ويبدو أنهم لم يحصلوا إلا على الوعود ما دفعهم إلى إثارة أهل بغداد، فقصد الجميع جامع السلطان وقت صلاة الجمعة وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطموا المنبر، ونادوا بوجوب قيام الجهاد[٢].

فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة، ومعهم أهل بغداد، فمنعهم حاجب الباب من الدخول، فغلبوه على ذلك، ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا إلى المنبر فكسروه، وبطلت الجمعة أيضاً، فأرسل الخليفة إلى السلطان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه[٣]، فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهز للجهاد، وسيّر ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الإفرنج[٤].

اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الفرنج، وتكونت من: صاحب الموصل الأمير مودود، وصاحب تبريز[٥] الأمير سقمان، والأميرين إيلكسي وزنكي ابني برسق، ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمديل وله مراغة[٦]، والأمير أبو الهيجاء صاحب إربل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين. فلما وصلوا إلى الرها حصروها مدة، ثم رحلوا فيها بعد عنها من غير أن يملكوها[٧]، بسبب ما وصلها من

(١) ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٦٨.
(٢) طقوش: الزنكيين ص٧٢ نقلًا عن ابن القلانسي: الذيل ص٢٧٦.
(٣) عاشور: فايز حماد، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م، ص١٥٣، ابن الأثير: الكامل ص١٥٨٩-١٥٩٠.
(٤) ابن الأثير:الكامل ص١٥٣، ابن الأثير: نفسه ص١٥٩٠.
(٥) تبريز: بكسر أوله وسكون ثانيه، أشهر مدن أذربيجان، وكانت تبريز قرية إلى أن نزلها الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان في أيام المتوكل. الحموي: معجم ج٢ ص١٣.
(٦) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. الحموي: نفسه ج٥ ص٩٣.
(٧) ابن الأثير:الكامل ص١٥٩٠.

الذخائر والمؤن والأمتعة من الصليبيين[١].

وقال ابن الأثير: «..وكان سبب رحيلهم عنها، أن الفرنج اجتمعت جميعها، فارسُها وراجلها، وساروا إلى الفرات ليعبروه ليمعنوا الرها من المسلمين، فلما وصلوا إلى الفرات بلغهم كثرة المسلمين، فلم يقدموا عليه، وأقاموا على الفرات، فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها إلى حران، ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم، فلما رحلوا عنها جاء الفرنج ومعهم الميرة[٢] والذخائر إلى الرها، فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه، بعد أن كانت قليلة الميرة، وقد أشرفت على أن تؤخذ، وأخذوا كل من فيه عجْز وضعْف وفقر، وعادوا إلى الفرات فعبروه إلى الجانب الشامي وطرقوا أعمال حلب، فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً»[٣]. ورغم أن الحملة التي قادها مودود لم تؤد إلى سقوط بعض معاقل الصليبيين بيده، إلا أنها كانت علامة واضحة على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[٤]، بل إنها ثبتت الدعائم التي كانت قد وضعت في حران عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م وساعدت في مواصلة قتال الصليبيين، والذي أينعت ثماره زمن عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبي[٥].

• الحملة الثالثة: في ذي القعدة ٥٠٥هـ/ مايو١١١٢م أغار مودود من جديد على الرها، ولكن هذه المرة وحيداً، وحاصرها فترة من الزمن، ولما يئس من الاستيلاء عليها اتجه نحو سروج في أرض الجزيرة، غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها، بعدما فرَّق

---

(١) الغامدي: الجهاد ص١٤٥.

(٢) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان. وقيل المِيرة جَلَب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع، وهم يَمتارُون لأَنفسهم ويمِيرون غيرهم ميراً. ابن منظور: اللسان ج٨ ص٤١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٥٩٠.

(٤) الغامدي: الجهاد ص١٤٥.

(٥) الغامدي: نفسه ص١٤٧.

جيشه بين الرها وحصار سروج في وقت واحد، ما سهل على جوسلين صاحب تل باشر أن يوقع به هزيمة عند سروج[١].

ولا شك أنه في هذه الفترة التي كان عماد الدين قريبا من مودود زرعت في عقله فكرة مواجهة الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين، وتلمسها عن قرب، وأصبحت هاجساً لديه لا تفارقه أبداً، حتى باتت جزءاً من شخصيته.

لم يدب اليأس إلى قلب مودود رغم كل تلك الإخفاقات، فقاد مطلع ٥٠٧هـ/ ١١١٣م تحالفاً إسلامياً لقتال الصليبيين، في معركة طبرية[٢] أو الصنبرة[٣] ضد مملكة بيت المقدس، بوصفه ممثل السلطان السلجوقي محمد في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، ضم التحالف دمشق والموصل وسنجار، وهذه هي المرة الأولى التي تتعاون فيها دمشق والموصل ضد الصليبيين[٤].

وشارك عماد الدين زنكي مع مودود في هذه المعركة، وأبلى بلاء حسناً[٥]، وتمكن المسلمون من الانتصار فيها، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فانسحب ملك بيت المقدس إلى طبرية، ووصل لنجدته روجر أمير إنطاكية، ولم يتمكن المسلمون من ملاحقته، ولم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي خصوصاً بعد دخول فصل الشتاء، وبعد أن ظل مودود وطغتكين على ترددهما بضعة أسابيع قرروا الانسحاب

(١) الغامدي: نفسه ص١٤٨.

(٢) طبرية: فتحت طبرية في يد شرحبيل بن حسنة عام ١٣هـ، وهي بليدة مطلة على بحيرة طبرية، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ٣ أيام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس، بينها وبين عكا يومان، الحموي: المعجم ح٤ ص١٧.

(٣) الصنبرة: موقع في الأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ٣ أميال. الحموي: نفسه ج ٣ ص٤٢٥.

(٤) طقوش: الزنكيين ص٧٧.

(٥) الغامدي: الجهاد ص ١٤٨.

إلى دمشق[١]. واستطاع مودود أن يعيد الثقة للأمراء المسلمين بعد هزائم متعددة أمام الصليبيين، وأحيا فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعادها إلى الوجود، بعدما كانت في طي النسيان، كما أنه من خلال كل ذلك، وجّه عماد الدين زنكي في الاتجاه الصحيح وفتح عينيه على حقيقة ربما كانت غائبة عنه وهو مازال في بداية طريقه، وهي أن القتال يجب أن يكون ضد العدو الصليبي، ولكن أولاً لابد من بناء دولة قوية.

وأظهر زنكي شجاعة نادرة ومقدرة قتالية فذة في المعارك التي اشترك فيها خصوصا أثناء حصار طبرية، لفتت إليه الأنظار وأكسبته شهرة واسعة لدى المسلمين. واشتهر عماد الدين زنكي في هذه الآونة بلقب «زنكي الشامي» تمييزاً له عن الأمير زنكي بن برسق صاحب همذان[٢]، وظل ملازماً لمودود حتى مقتله في ربيع الآخر٥٠٧هـ/ ١١١٣م عندما خرج من جامع دمشق بعد أدائه الصلاة، ويده بيد طغتكين، فطُعِن في ظهره وكان صائماً، وحاول من معه أن يسقوه الماء ليشرب، فقال لهم: «لا لقيت الله إلا صائماً، فإني ميت لا محالة سواء فطرت أو صمت» ثم توفي وهو صائم[٣]. بينما قال ابن القلانسي: «فلما حصلا، أي مودود وطغتكين، في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لا يؤبه له ولا يُحفل به، فقرب من الأمير مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه، وضربه بخنجره أسفل سرته ضربتين أحدهما نفذت إلى خاصرته والأخرى إلى فخذه، هذا والسيوف تأخذه من كل جهة وضرب بكل سلاح». وقال أيضاً: «..ومودود متماسك يمشي إلى أن قرب من الباب الشمالي من الجامع، ووقع فحُمل إلى الدار الأتابكية، وأتابك أي طغتكين معه ماشٍ، واضطرب الناس اضطراباً

(١) رنسيمان: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت، طبعة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م ج٢ ق١ ص٢٠٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٥٩٢-١٥٩٣.

شديداً وماجوا، واختلفوا ثم سكنوا بمشاهدتهم له يمشي، وظنوا به السلامة، وأُحضر الجرائحي فخاط البعض وتوفي رحمه الله بعد ساعات يسيرة في اليوم المذكور، فقلق أتابك لوفاته وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرعية، وتألموا لمصابه، وزاد التأسف والتلهف عليه، وكُفِن ودفن وقت العصر من اليوم مشهد داخل باب الفراديس من دمشق، وكل عين تشاهده باكية، والمدامع على الوجنات جارية»[١].

وقد ارتاح الصليبيون من ذلك الرجل الذي آمن بفكرة الجهاد الإسلامي، وتخلصوا من عدو لدود لهم[٢]، عُرف بالتقوى والورع من ناحية، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى، ما جعله يسبب لهم رعباً كثيراً[٣]، حتى أن ملك الفرنج كتب رسالة قال فيها : «إن أمة قتلت عميدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها»[٤].

أقوال في مودود: قال ابن الأثير[٥] عن مودود: «كان خيراً، عادلًا حسن السيرة»[٦].

وتحدث ابن تغري بردي عنه بقوله: «كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً»[٧]. وذكر ابن القلانسي أنه: «لزم التدين والصدقات والأمر بالمعروف والنهي

(١) ابن القلانسي: الذيل ص١٨٧-١٨٨، ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٠٧.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٢٠٦.

(٣) طقوش: الزنكيين ص٧٧ نقلًا عن رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٢٠٦.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٩.

(٥) ابن الأثير: هو عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، أبو الحسن الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير، الفقيه المؤرخ الشافعي، ولد عام ٥٥٥هـ وتوفي بالموصل عام ٦٣٠هـ. أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص٩٤.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص١٩، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٨.

(٧) ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٠٧.

عن المنكر، فشاعت بالجميل أخباره، وبحسن الارتضاء آثاره، ثم توفي سعيداً مقتولاً شهيداً»[١]، ووصفه وليم الصوري بأنه: «أمير قوي من أصل رفيع»[٢].

مع ما أبداه طغتكين من الحزن على ضيفه، وأسفه وانزعاجه كما قال ابن القلانسي[٣]، فإن ابن الأثير قد اتهم طغتكين بقتل مودود حيث قال: «..وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله»[٤]، خوفاً من أن يكون بقاؤه في دمشق بتدبير من السلطان محمد بن ملكشاه [٥]، «وقيل إن طغتكين خافه فوضع عليه من قتله»[٦]. كما ذكر ابن واصل: «إن الباطنية في الشام خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين خافه فقتله»[٧]. وأوضح رنسيمان: «..وبادر طغتكين بقتل الجاني لتبرئة نفسه من جريمة القتل واعتبره الرأي العام أنه هو الجاني»[٨]. وأشار وليم الصوري إلى أن مقتل مودود «تم بمعرفة الملك طغتكين وموافقته، فقد انتشرت شائعة تقول إن الملك ارتاب بقوة ذلك القائد وخشي من أن ينتزع المملكة منه»[٩]. وقد استفاد الصليبيون من هذه الجريمة، لأن الرأي العام الإسلامي كان يشير إلى اتهام طغتكين، ما دفع الأخير إلى التفكير في محالفة الصليبيين، بهدف الاحتفاظ بإمارته، ولو كان ذلك على حساب مصلحة الإسلام والمسلمين، ومن ثم يمكن القول أن قتل مودود كان فيه منفعة للصليبيين وضرر

(١) ابن القلانسي: الذيل ص١٨٨.

(٢) الصوري: وليم، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لمؤرخ بيت المقدس،ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ٢٠٠٣م، ج١ ص٥٤٧ ج١ ص٥٥٠.

(٣) ابن القلانسي: الذيل ص ١٨٧.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٩، ابن الأثير: الكامل ص١٥٩٣.

(٥) الغامدي: الجهاد ص١٤٩.

(٦) تاريخ أبي الفدا ج١ ص٤٦.

(٧) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٨.

(٨) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٢٠٦.

(٩) الصوري: تاريخ الحروب ج١ ص٥٥٠.

بالمسلمين[١]، وهذا ما أكده رنسيمان بقوله : «..وتخلص الفرنج من عدو لدود لهم»[٢].

٥- جيوش بك:

بعد مقتل مودود التحق عماد الدين بخدمة والي الموصل الجديد جيوش بك[٣]، ثم انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، فسار الجيش وفيهم عماد الدين زنكي إلى الرها وبلد[٤] ثم إلى سميساط[٥] وسروج، وأبلى في هذه المواقف بلاء حسناً، وعادت العساكر تتحدث بما فعله زنكي، وما ظهر له من الشجاعة[٦]، ما دفع السلطان محمد أن يطلب من واليه على الموصل آق سنقر البرسقي بحفظ عماد الدين زنكي، وتقديمه والوقوف عند إشارته[٧]. وعندما توفي السلطان محمد[٨] عام ٥١١هـ، حاول جيوش بك، الذي كان أتابكاً لابنه مسعود،

---

(١) عاشور: جهاد المسلمين ص١٥٨ نقلًا عن القلانسي: الذيل ص١٨٧.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٢٠٦.

(٣) جيوش بك: كان صاحب الموصل، تركياً من مماليك السلطان محمد، عادلًا حسن السيرة، قتل في رمضان ٥١٦هـ.
ابن الأثير: الكامل ص١٦٢٣.

(٤) بلد: وربما قيل بلط، وقالوا سميت بذلك لأن الحوت ابتلعت النبي يونس عليه السلام في نينوى مقابل الموصل وبلطته هناك، وبها مشهد عمر بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل. الحموي: المعجم ج١ ص٤٨١.

(٥) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم، على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن.
الحموي: نفسه ج٣ ص ٢٥٨، وهي الآن في تركيا. ابن العديم: الزبدة ج١ ص٣٤٢.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص١٩-٢٠.

(٧) ابن الأثير: نفسه ص٢٤.

(٨) السلطان محمد: هو غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ولد عام ٤٧٤هـ ، اعتلى كرسي العرش عام ٤٩٢هـ، وقطعت عنه الخطبة مرات عدة، إلى أن توفي أخوه بركيارق عام ٤٩٨هـ، فحينئذ استقرت له السلطنة، ودانت له البلاد وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه ١٢عاما و ٦ أشهر. وتوفي السلطان محمد يوم الخميس ٢٤ ذي الحجة ٥١١هـ، عن عمر يناهز ٣٧ عاماً و٤ أشهر =

الاستيلاء على السلطة من السلطان محمود[١] الذي اعتلى العرش بعد أبيه، وتنصيب مسعود سلطاناً على السلاجقة، وسانده عماد الدين في ذلك، وسار الوالي ومسعود إلى بغداد، لكن المحاولة باءت بالفشل بعد سلسلة من الحروب، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم[٢].

وقد أقر السلطان محمود أخاه الملك مسعوداً على الموصل مع أتابكه جيوش بك[٣]، وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور مرة أخرى على السلطان محمود، وخطب لمسعود، إلا أن زنكي رفض ذلك، ودعاهما إلى طاعة السلطان محمود وترك الخلاف عليه، وحذرهما من عاقبة العصيان، وعندما انتصر محمود في الحرب، علم بموقف زنكي فقدره وأوصى والي الموصل الجديد سنقر البرسقي- الذي عيَّنه فيها بعد أن أخذ الموصل من أخيه مسعود- بالعناية بزنكي وتقديمه على سائر الأمراء[٤].

بعد الهزيمة التي تعرض لها مسعود وجيوش بك، طلب الأول الأمان من أخيه السلطان فأمّنه[٥]، فأرسل إليه البرسقي بأمانه وتطييب قلبه، فأحضره معه عند السلطان، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه وأحسن إليه، ولما لقيه بكى كل واحد منهما إلى صاحبه، واعتذر مسعود فقبل عذره وخلطه بنفسه.

= و٦ أيام. ابن الأثير: الكامل ص١٦٠٠، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٩، ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢١٤.

(١) السلطان محمود: استلم الحكم يوم الجمعة ٢٥ ذي الحجة ٥١١هـ، وتوفي عام ٥٢٥هـ في همذان. ابن الأثير: الكامل ص١٦٠٠، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٨.

(٢) الصلابي: الزنكية ص٣٨.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٢٢، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٢.

(٤) الصلابي: الزنكية ص ٣٨، أبو شامة: نفسه ج١ ص١٥٢.

(٥) ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٩.

أما جيوش فإنه انتظر مسعوداً فلم يره، فسار إلى الموصل ومعه العساكر ليمتنع بها، فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود، علم أنه لا مقام له، فسار إلى السلطان فأمَّنه وأكرمه وأخذ الموصل منه وأقره على أذربيجان[١]، وبعد ذلك قتله السلطان عند باب تبريز بتحريض من بعض الأمراء[٢].

٦- آق سنقر البرسقي:

يعدما عُين البرسقي في منصبه الجديد شحنة[٣] على العراق عام ٥١٦هـ، خاض زنكي معه حروباً ضد أمير الحلة[٤] دبيس بن صدقة[٥] الذي جمع جيشه واحتشد وقصد بغداد وعاث في أطرافها[٦]، وكلَّف البرسقي زنكي الدفاع عن واسط[٧] وحقق نجاحاً منقطع النظير في ذلك، وكان لعماد الدين أثر حسن في هذه الوقعة، وقتل وأسر الكثير من عسكر دبيس[٨]، وهو ما دفع البرسقي لتعيينه والياً على البصرة، للدفاع عنها من هجمات الأعراب والقضاء على الفوضى التي كانت تعمها. واستطاع زنكي

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٦٢٣.

(٣) الصلابي: الزنكية ص٣٩ ، الشحنة: أي بمثابة المحافظ .

(٤) الحلة: في اللغة أي القوم النزول وفيهم كثرة، وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعين، وأول من عمرها ونزلها صدقة بن منصور بن دبيس. الحموي: المعجم ج٢ ص٢٩٤.

(٥) دبيس بن صدقة بن مزيد: قتله السلطان مسعود في عام ٥٢٩هـ على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى، ولقي منه الخليفة والمسلمون شروراً كثيرة، وأبطل الحج وكانت أيامه ٦٧ عاماً. ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٥٦.

(٦) ابن القلانسي: الذيل ص٢٠٦.

(٧) واسط: هي نصفان على شط دجلة متقابلان، بينهما جسرين من سفن في كل جانب، وفي كل جانب مسجد جامع، وهي محدثة بالإسلام أحدثها الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٨٦ هـ. ابن الأثير: الباهر ص٢٤، الحموي: المعجم ج٥ ص٣٤٨.

(٨) ابن واصل:الكروب ج١ ص٣٠.

أن يسحق في طريقه إلى واسط، القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية[١]، وأن يستولي على هذا الموقع[٢]. وأظهر زنكي في منصبه الجديد حزماً وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة، وتمكن خلال فترة قصيرة من إعادة تنظيمها من جديد، وبعد القوة التي ظهر عليها زنكي لم يستطع دبيس مواجهته ففضل التوجه نحو الخليفة العباسي المسترشد[٣].

ورغم ذلك لم يقف زنكي والبرسقي مكتوفي الأيدي، وإنما دافعا مع جنودهما عن الخليفة وتمكنوا في عام ٥١٧هـ من إلحاق الهزيمة بدبيس الذي اتجه نحو البصرة مستغلاً بُعد زنكي عنها، وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهْبها، فعاد إليه زنكي، وعندما سمع دبيس بذلك انسحب واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين[٤].

في عام ٥١٧هـ عزل السلطان محمود، البرسقي من شحنكة العراق وأعيد إلى الموصل لجهاد الصليبيين، وكان عماد الدين في البصرة، فأرسل إليه البرسقي ليسير معه إلى الموصل . وقال ابن الأثير: «حدثني والدي أن زنكي جمع أصحابه وقال لهم: قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد يملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة ببلاد الجزيرة وتارة في الشام[٥]، فبم تشيرون علي؟. فقال له زين الدين علي بن بكتكين[٦]، وكان من أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحبة:

(١) النعمانية: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة، معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته. الحموي: المعجم ج٥ ص٢٩٤.

(٢) الصلابي: الزنكية ص٣٩.

(٣) الصلابي: نفسه ص٣٩.

(٤) الصلابي: نفسه ص٤٠.

(٥) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٤، ابن واصل: الكروب ج١ ص٣٠.

(٦) زين الدين علي بن بكتكين: مشهور باسم زين الدين كوجك، توفي عام ٥٦٣هـ. ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٧.

«إن التركمان تقول في أمثالها إذا أراد إنسان أن يضع على رأسه حجراً فليكن من جبل كبير، ونحن إذا كان لابد أن نخدم الناس فخدمة السلطان أولى». فقبل رأيه، وسار من البصرة إلى السلطان محمود وأقام عنده. لكن عماد الدين زنكي لم ير من السلطان ما كان يرجوه!، وأنفق ما معه من مال، وكلما ضاق به الحال قال لزين الدين: «قد وضعنا على رأسنا حجراً عظيماً كما أردت!». ومع ذلك كان عماد الدين يقف على يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، كما كان يفعل أبوه.

وذات مرة قال السلطان لأمراء يعاتبهم: «أما تستحون.. يأتي إليكم عماد الدين، وقد عرفتموه، وعرفتم محل والده في الدولة، فلم يكن فيكم من حَمَل له شيئاً، ولا يعْمل له دعوة، والله لقد تركتُه لم أرسل إليه نفقة، ولا أعطيته إقطاعاً لأنظر فيكم». وبالغ السلطان في لومهم، ثم قرّب عماد الدين إليه، وزوَّجه بأرملة الأمير كندغدي[١]، تكريما له، وهو ما جعله يقترب كثيراً من كبار الأمراء وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته[٢].

لم يلبث وقت طويل حتى عادت الفوضى تعم أرجاء البصرة، فلم يجد السلطان بداً من توجيه زنكي إليها، وأقطعه إياها عام ٥١٨هـ، خصوصاً بعد أن بلغه عنه ما قام به من الحماية لها في العام الماضي[٣]، كما كلفه الإشراف على واسط والسعي للدفاع عنها، عندما فكر الخليفة المسترشد إرسال جيش للاستيلاء عليها، لاسيما أن العلاقة بين السلطان والخليفة حينئذ قد ساءت كثيراً، ونجح زنكي في مهمته إلى أبعد تقدير، بل إنه أخذ يمد السلطان بأخبار العراق، بحيث لم يخف عن الأخير شيئاً من أموره،

(١) كندغدي: هو الأمير خاصبك بن كندغدي، وقد جعل السلطان محمود، جمال الدين الجواد محمد بن علي بن أبي المنصور وزيراً لخاصبك وأرسله مع عماد الدين. ابن الأثير:حاشية الباهر ص٢٨.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٢٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٤.

ما زاد من تقديره لزنكي ومن ثم ارتفاع منزلته عنده، وهو ما جعله يرشحه لمنصب شحنكية العراق.

ولعب زنكي دوراً كبيراً وحاسماً في الصراع الذي دار بين الخليفة والسلطان، خصوصا بعدما عرض السلطان السلجوقي محمود، الصلح على الخليفة العباسي المسترشد، إلا أن الأخير رفض ذلك، فاندلعت المعركة بينهما، وطلب السلطان محمود من عماد الدين زنكي الحضور إلى بغداد، ومعه المقاتلين في البر والبحر، وأن يكثر من السفن ما أمكنه، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح[١]، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة إلا استصحبها وشحنها بالمقاتِلة[٢]، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء، فلما قارب بغداد نشر الأعلام، وأظهر السلاح، وأخرج بعض من في السفن إلى البر، فامتلأت الأرض والماء رجالاً وسلاحاً، فرأى الناس منظراً عجيباً، وعظم ذلك في أعينهم، وركب السلطان والعساكر فرأوا ما ملأ قلوبهم وعيونهم[٣]، عندها أدرك الخليفة أنه لا قِبل له بزنكي، ففضل الصلح على الحرب.

قبل أن يترك السلطان محمود بغداد نظر فيمن يصلح من أمراء وأعيان دولته لتولي شحنكية[٤] العراق، يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور، فلم ير فيهم من يصلح لسد هذا الباب العظيم ويرفع هذا الخرق ويمنعه عن الاتساع وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين، فأسندها إليه إضافة إلى ما يملك من الإقطاع[٥]، وسار عن

---

(١) البطائح: تبطح السيل إذا اتسع، وهي أرض واسعة بين البصرة وواسط. الحموي: المعجم ج١ ص٤٥٠.

(٢) المقاتلة: هم القوم الذين يصلحون للقتال. ابن منظور: اللسان ج٧ ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٣٠.

(٤) الشحنكية: أي الشرطة. المقريزي: حاشية السلوك ج١ ق١ ص ٣٥.

(٥) ابن الأثير:الباهر ص٣١ ، الإقطاع: يقوم النظام على إقطاع واردات الأرض إلى الحاكم لفترة محدودة أو لمدى الحياة، وربط ذلك بالخدمة العسكرية، ثم اتجه هذا الإقطاع ليكون وراثياً، وكان ذلك حلاً =

بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق فكان الأمر كما ظن[١]، وقضى زنكي في منصبه أربعة أشهر[٢] قبل أن تتبدل وتتغير الأحوال.

مقتل البرسقي:

في عام ٥٢٠هـ قُتِل البرسقي بالجامع العتيق في الموصل بعد صلاة الجمعة، وكان قد رأى في منامه في ليلة مقتله أن كلاباً عدة ثارت به فَقَتل بعضها، ونالت منه بعضها أذى شديداً، فقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بترك الخروج من داره أياماً عدة، فقال: «لا أترك الجمعة لشيء أبداً، وكان يشهدها في الجامع مع العامة، فحضر الجامع كعادته، فهجم عليه عشرة أشخاص من الباطنية فأردوه قتيلاً، بعد أن قتل منهم ثلاثة»[٣]. وكان شديد الحرص والتحفظ ويكثر من عدد الحراس حوله، كما كان يلبس الحديد احترازاً، فلما بدأ بصلاة الجمعة وثب[٤]عليه عدد من الأشخاص بسكاكينهم، فضربوه ضربات عدة، لم تؤثر فيه بسبب ارتدائه الحديد، فضرب أحدهم فقتله، وصاح واحد منهم حين رأوا السكاكين لا تؤثر به، «ويلكم أطلبوا رأسه وأعلاه» وقصدوا حلقه بضرباتهم، فأثخنوه[٥]حتى قتل، فوصل أصحابه وقتلوا جميع من وثب عليه[٦]. وقد أدى اغتياله إلى انتكاسة مروعة، لكن مؤقتة، ذلك لأن الأمة كانت تعيش بداية

= لمشكلة القبائل التركمانية التي يحتاجها السلاجقة للتجنيد، وسرعان ما صار الحكام الجدد يبالغون في شراء الرقيق ليكونوا آلات حرب بدلاً عنهم، وقد وصل الأمر إلى أوجه في عهد الدولة الأيوبية الذين اضطروا أمام قوة مماليكهم إلى ترك الحكم لهؤلاء المماليك. مصطفى: موسوعة ج٢ ص٦٧٢.

(١) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٤.

(٢) خليل: عماد الدين ص٤٢.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٣١.

(٤) الوثب: الطَّفر. ابن منظور: اللسان ج٨ ص٢١٢.

(٥) أثخن: أي أثقله، وقال ابن الَأعرابي: أَثخن إذا غلبَ وقهر،وأَثخن في العدو: بالغ. ابن منظور: نفسه ج١ ص٦٦٠.

(٦) ابن القلانسي: الذيل ص٢١٤.

عصر اليقظة، لهذا اجتازت المحنة[١].

قال عنه ابن القلانسي: «كان سديد الطريقة، جميل الأفعال، حميد الأخلاق، مؤثر العدل والإنصاف، كثير التدين، محمود المقاصد، محباً للخير وأهله، مكرماً للفقهاء والصالحين»[٢]. وذكر الذهبي: «كان ديِّناً حسن الأخلاق وصى قاضيه بالعدل، بحيث أنه أمر زوجته أن تدعي عليه بصداقها فنزل إلى قاضيه وجلس بين يديه»[٣]. وقال عنه ابن الأثير: «كان مملوكاً تركياً خيّراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً»[٤]. وقال عنه أبو الفدا: «كان مملوكاً تركياً شجاعاً ديِّناً حسن السيرة، من خيار الولاة»[٥]. قال ابن الأثير: «حكى لي والدي رحمه الله عن بعض من كان يخدمه قال:كنت فرَّاشاً معه، فكان يصلي كل ليلة كثيراً وكان يتوضأ هو بنفسه، ولا يستعين بأحد، ولقد رأيته في بعض ليالي الشتاء بالموصل، وقد قام من فراشه وعليه فرجية صغيرة، فمشى نحو دجلة ليأخذ ماء، فمنعني البرد من القيام، ثم إني خفتُه، فقمتُ إلى بين يديه لآخذ الإبريق منه، فمنعني وقال: يا مسكين ارجع إلى مكانك، فإنه برد، فاجتهدت لآخذ الإبريق، فلم يعطني، وردني إلى مكاني ثم توضأ وقام يصلي».

تولى بعد البرسقي ابنه عز الدين مسعود، وهو مشهور بالنجابة[٦]، معروف

---

(١) زكار: سهيل، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدمه د. سهيل زكار ، مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤٥.

(٢) ابن القلانسي: الذيل ص٢١٤.

(٣) الذهبي: السير ج١٩ ص٥١١-٥١٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ص١٦٣١.

(٥) أبو الفدا: المختصر ج٢ ص٦١.

(٦) النجابة: مصدر النجيب من الرجال هو الكريم ذو الـحسب إذا خرج خروج أَبيه في الكَرم. ابن منظور: اللسان ج٨ ص٤٥٤.

بالشهامة والعناء، فاجتمع إليه خواص أبيه وكُتّابه، وسلك منهاجه المحمود، فاستقام له الأمر[١]،وكان شاباً عاقلًا حسن السيرة، إلا أنه توفي في عنفوان شبابه عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٢]، ثم تولى بعده أخوه الأصغر[٣].

(١) ابن القلانسي: الذيل ص٢١٤.

(٢) يقول ابن الأثير عن وفاة عز الدين مسعود البرسقي عند الرحبة: «..فوصل إليها ونازلها، وقام بحصارها، فأخذه مرض حاد وهو محاصر لها، فتسلم القلعة ومات بعد ساعة، فندم من بها على تسليمها إليه»، بينما قال ابن العديم: «فلما نزل بظاهر الرحبة امتنع واليها من تسليمها، فحاصرها أياماً فسلمها الوالي إليه، ونزل فوجده قد مات فجأة، وقيل سقي سماً فمات، وندم الوالي على تسليم الرحبة». ابن الأثير: الكامل ص١٦٣٤، ابن العديم: الزبدة ج١ ص٤٣٠.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٣١.

الفصل الثاني

عماد الدين.. الأمير

في ظل تلك الظروف الداخلية التي تعيشها الموصل، أي وفاة حاكمين لها خلال فترة وجيزة، وتولي أمرها حاكم صغير تحت وصاية مملوك تركي، وفي ظل وجود أخطار خارجية في المنطقة، ومع تصاعد قوة عماد الدين زنكي في العراق، برز دور علماء الموصل في تحديد مصير بلادهم. فقد أبوا أن يظلوا مكتوفي الأيدي وعو يرون تصاعد الأحداث وتغيرها أمامهم.

دور العلماء:

استشعر عدد من العلماء بالخطر الصليبي الذي يحدق بهم، فطلبوا من السلطان محمود أن يولي عماد الدين الموصل نظراً لقدرته على حفظ البلاد في هذه المرحلة الحساسة، فذهب القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري[١]، وصلاح الدين محمد الياغيسياني إلى بغداد، التي كان بها السلطان محمود، لإقناعه بتولي زنكي على الموصل، وقالا لوزير السلطان شرف الدين أنو شروان بن خالد[٢]عندما اجتمعا به:

(١) بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري: هو علي بن القاسم بن المظفر الشهرزوري توفي عام ٥٣٢هـ وكان أعظم الناس منزلة عند عماد الدين زنكي وهو عم القاضي كمال الدين الشهرزوري المتوفى عام ٥٧٢هـ .أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٥٥و١٦٣و١٧٩.

(٢) أنو شروان بن خالد: شرف الدين أبو نصر أنو شروان بن خالد بن محمد القاشاني، كان نبيلًا فاضلًا جليل القدر، له تاريخ لطيف سماه «صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور»، وتوفي أنو شروان بن خالد عام ٥٣٢هـ، وهو الذي طلب من أبي محمد القاسم الحريري عمل مقاماته المسماة بـ«مقامات الحريري». ابن خلكان:الأعيان ج٣ ص٤٩٢و٤٩٦، الحنبلي: شذرات ج٤ ص١٠١ .

«قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها، وأصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم، وهذا ولده طفل، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها[1]، وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان»[2]، واقترحا عليه اسم عماد الدين زنكي.

ولعل من أبرز الأسباب التي دعتهما لطرح اسم زنكي لخوفهما من تحكم جاولي سقاو في شؤون الولاية ولا يرضيان بطاعته والتصرف حسب هواه[3].

ونقل الوزير شرف الدين مطلبهما وحال بلاد الشام إلى السلطان محمود، فاقتنع برأيهما وحالهما، وأمر السلطان بحضور عماد الدين عنده وكتب له منشوراً بتوليته الموصل.

ولم يكتف السلطان بذلك بل سلّمه ولديه ألب أرسلان وفرخشاه المعروف بالخفاجي ليكون أتابكاً لهما «أي أبا مربياً»، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً وأصبح ولدا السلطان محمود تحت إشرافه المباشر. ولا شك أن إسناد حكم الموصل إلى عماد الدين زنكي في هذه المرحلة الحساسة التي تمر بها المنطقة يعني إمكانية بعث الروح من جديد إلى كل من يسعى إلى طرد الصليبيين من المنطقة، وتحرير المدن الإسلامية التي سقطت بأيدي المعتدين. وقد وقع الاختيار على عماد الدين زنكي في ضوء مواقف

---

(١) حوزتها: يقال حمى حوزة الإسلام أي حدوده ونواحيه. وهو يحمي حوزته أي ما يليه ويحوزه.ابن منظور: اللسان ج٢ ص٦٥٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٣٥.

(٣) خليل: عماد الدين ص٤٣.

سابقة له في الصراع ضد الصليبيين، وأثبتت الأحداث التاريخية فيما بعد أن عماد الدين زنكي كان رجل الساعة بالنسبة لحركة المقاومة الإسلامية[١].

كما كان يتمتع بصفات مميزة أهلته لهذا الاختيار، فقد كان عسكرياً من الطراز النادر، له من الحزم والشجاعة والبطش، وحب النظام والتقيد به، مع المصالح العالية، ما أهله محل الزعامة، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها قد أوكلته إليه وعهدت بمسؤولياته الجسام إلى إخلاصه وكفاءته[٢].

وقد حفظ عماد الدين زنكي فضل الفقيهين بهاء الدين الشهرزوري[٣] وصلاح الدين بن أيوب الياغيسياني[٤]، اللذين لعبا دوراً بارزاً في توليته حاكمًا على الموصل، فعيَّن الأول قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وزاده أملاكاً وإقطاعاً واحتراماً، وكان يثق به وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور المهمة، ولا يصدر إلا عن رأيه، وعيَّن الثاني في منصب أمير حاجب لديه[٥].

---

(١) أبو سعيد: حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام مصر ٢٠٠٧م ص١٦٩.

(٢) زكار: الإعلام ص٤٥.

(٣) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد. الحموي: المعجم ج٣ ص٣٧٥.

(٤) كان صلاح الدين الياغيسياني أمير حاجب البرسقي. في منصبه كأمير حاجب وقائد، وتقدم لدى زنكي، لذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طوال فترة حكمه. ابن الأثير: حاشية الباهر ص ٣٤، خليل: عماد الدين ص١٩٤-١٩٥.

(٥) ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مصححة اعتنى بها أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن ص١٣٦٧.

قيام الدولة الزنكية:

في ٣ رمضان ٥٢١هـ/ سبتمبر ١١٢٧م وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز[١]، قادماً من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد.

وبوصوله إلى هذا المنصب قامت الدولة الزنكية، وقد شملت في عهده إضافة إلى الموصل ، الجزيرة ونصيبين.

وجاورت إمارة الموصل كلاً من: إمارة الرها من الغرب والجنوب، وإمارة ديار بكر وبلاد نيسابور[٢] وأذربيجان[٣] وهمذان[٤] من الشرق، وواجهت البيزنطيين من الشمال، كانت إمارة واسعة تصل حدودها إلى شمال بغداد[٥]. ولم ينس زنكي فضل جكرمش عليه عندما رعاه في صغره، إذ رد زنكي الجميل فقام برعاية ابن جكرمش

(١) بهروز: هو مجاهد الدين بهروز بن عبدالله الخادم، توفي ببغداد في رجب ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، كان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين عاماً، توفي ببغداد عام ٥٤٠هـ. وكان صاحب الشحنة ببغداد مرات عدة بين أعوام ٥٠٢- ٥٤٠هـ. وبهروز لفظ أعجمي تعني يوم جيد.
العمري: المسالك ص٨٧، أبو شامة:حاشية الروضتين م١ج٢ ص١٦٥، المقريزي:حاشية السلوك ج١ ق١ ص٤٠ ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، الجزء الأول، عنى بتحرير نصه الدكتور حسن محمد الشماع ج١ ص٥١.

(٢) نيسابور: مدينة في إيران الحالية، تبعد عن الري «ضاحية في طهران حالياً» ١٦٠ فرسخاً، وعن سرخس٤٠ فرسخاً، فتحت في عهد عثمان بن عفان بقيادة عبدالله بن عامر عام ٣٠ هـ، طقوش: الزنكيين ص٥٩ نقلاً عن الحموي: المعجم ج٥ ص٣٣١.

(٣) أذربيجان: حد أذربيجان من بردغة شرقاً إلى أرزنجان غرباً، وتصل حدها من الشمال ببلاد الديلم، والجبل والطرم، ومن أشهر مدنها: تبريز وخوي وسلماس وأرمية وغيرها، فتحت في عهد عمر بن الخطاب. الحموي: نفسه ج١ ص١٢٨.

(٤) همذان: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال، وكانت أربعة فراسخ في مثلها، فتحت في عهد عمر بن الخطاب عام ٢٤هـ وقيل ٢٣هـ، وتتألف من أربعة وعشرين رستاقاً. الحموي: نفسه ج٥ ص٤١٠.

(٥) طقوش: الزنكيين ص٥٩، ابن الأثير: الباهر ص٣٢.

ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، وفوق هذا اتخذه صهراً[١]. ووضع زنكي هدفين نصب عينيه هما:

- تأسيس دولة وتوسيعها عن طريق ضم المدن والإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام وتوحيدها مع إمارة الموصل.

- تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين وتطردهم من الشرق الإسلامي.

فدخل من أجل ذلك في علاقات سياسية وعسكرية مع الأمراء المحليين، إذ كان يدرك بثاقب بصره أنَّ التفتت في الجبهة الإسلامية وما ترتب على ذلك من علاقات عدائية، قد أسهم مساهمة كبيرة في الانتصارات التي حققها الصليبيون، وفي نجاحهم في فرض مخططاتهم التوسعية، وبالتالي فإن أي محاولة لتغيير موازين القوى بين المسلمين والصليبيين، إذا أريد لها النجاح، يجب أن تبدأ بالقضاء على هذه الظاهرة، على الأقل بالنسبة للقوى التي كانت تتاخم الإمارات الصليبية[٢].

وشرح ابن الأثير مدى القوة التي كان عليها الصليبيون عندما وصل زنكي إلى حكم الموصل إذ قال: «لما ملك المولى الشهيد البلاد، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم، وتضاعفت سطوتهم، وعلا شرهم، واشتد بطشهم، وامتدت بلاد الإسلام بأيديهم، وضعف أهلها من كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، وركبوهم بالتبار[٣]

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٦، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٧.

(٢) أبو سعيد: الجبهة ص١٧١.

(٣) التبار: أي الهلاك، قال تعالى "ولا تزد الظالمين إلا تباراً" قال الزجاج: معناه إلا هلاكاً. ابن منظور: اللسان ج١ ص٥٨٨.

والتباب[١]، واستطار في البلاد شرر شرهم، وعم أهلها شديد حيفهم، وعظيم قهرهم، فنجوم سعد المسلمين منكسرة، وسماء عزهم منفطرة، وشمس إقبالهم مكورة، ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة، وأنصارهم على أهل الإيمان منصورة»[٢].

كما صوّر ابن الأثير مدى اتساع سلطان الصليبيين وضعف المسلمين، بقوله: «.. وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين[٣] وشبختان[٤] إلى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حمص[٥] وحماة ودمشق[٦]وشيزر، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد، فلم يبقوا على موحد وجاحد، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين، ورأس العين، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين، وأما الرقة وحران[٧] فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار، واستضعاف واقتسار، وانقطعت الطرق إلى

(١) التباب: الخسران والهلاك ، قال تعالى «تبت يدا أبي لهب» أي ضلتا وخسرتا. ابن منظور: نفسه ج١ ص٥٨٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٣٢.

(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، ومشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الربض الواسع الفضاء الواسع، وقدامها ربض عظيم. الحموي: المعجم ج٥ ص٣٩.

(٤) شبختان: أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور . خليل: حاشية عماد الدين ص ١٤٩.

(٥) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسوّر، وفي الطريق القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. الحموي: المعجم ج٢ ص٣٠٢.

(٦) دمشق: البلدة المشهورة قصبة الشام، وقيل سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، فتحها المسلمون في رجب ١٤هـ بعد حصار ومنازلة، وأصبحت دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد الدولة الأموية. الحموي: نفسه ج٢ ص٤٦٣- ٤٦٥.

(٧) حران: تقع حران على طريق الموصل والشام والروم، فتحت في أيام عمر بن الخطاب، على يد عياض بن غنم، نزل عليها قبل الرها، فخرج إليه مقدموها، فقالوا له: ليس بنا امتناع عليكم، ولكن نسألكم أن تمضوا إلى الرها فمهما دخل فيه أهل الرها فعلينا مثله، فأجابهم عياض إلى ذلك، ونزل على الرها وصالحهم، فصالح أهل حران مثله. وهي الآن قرية مهملة داخل الحدود التركية، قريبة من أطراف محافظة الرقة السورية، وكانت دوماً من أهم مدن بلاد الشام، لاسيما في الجوانب الفكرية والعقائدية. الحموي: نفسه ج٢ ص٢٣٥-٢٣٦، ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص٣٤.

دمشق إلا على الرحبة[١] والبر، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة ونصباً، ثم زاد الأمر وعظم الشر، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقنعوا بذلك، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وغيرهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العودة إلى أهله أخذوه، أما حلب قد أخذوا مناصفة أعمالها حتى في الرحا[٢] التي على باب الجنان[٣]، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة!»[٤].

العائلة الأيوبية:

وشاءت الأقدار أن يتعرف عماد الدين زنكي ببني أيوب، وهي العائلة التي سيكون لها شأن كبير مستقبلاً، وذلك عن طريق نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، والأخير هو وارث ملك الدولة الزنكية فيما بعد، ورغم أن هذا التعارف كان عابراً وسريعاً في أول الأمر إلا أنه كان مؤثراً وقوياً في مراحل لاحقة، وسوف يرسم مسار ومصير العائلة. فبعد أن انصرف عماد الدين إلى تنظيم شؤون إمارته إدارياً وعسكرياً، وبعد أن تمكن من إفشال محاولة السلطان السلجوقي محمود لعزله من منصبه في الموصل والجزيرة وبلاد الشام إثر اتفاقه مع الخليفة العباسي على ذلك، تمكّن زنكي من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة الصليبيين، كما أكد طاعته وإخلاصه له، فخلع عليه وجدد له ولايته، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيداً لمنشور عام ٥٢١هـ، بعد ذلك وقعت حرب

(١) الرحبة: رحبة مالك بن طوق، بينها وبين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ، وإلى الرقة نيف وعشرين فرسخاً، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات، أسفل قرقيسيا. الحموي: نفسه ج٣ ص٣٤.

(٢) الرحا: جبل بين كاظمة والسيدان عن يمين الطريق من اليمامة إلى البصرة. الحموي: نفسه ج٣ ص٣٠.

(٣) باب الجنان: باب من أبواب مدينة الرقة وباب من أبواب مدينة حلب. الحموي: نفسه ج١ ص٣٠٧.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص٣٣.

بين حاكم أذربيجان السلطان مسعود بن محمد وشقيقه سلجوق شاه وسنجر بن ملكشاه، للسيطرة على ملك سلاجقة العراق، إثر وفاة السلطان محمود عام ٥٢٥هـ، وأيَّد الخليفة العباسي المسترشد، سلجوق شاه ، فيما وقف زنكي مع مسعود بعد أن استماله إليه لمساعدته لقاء منحه مدينة إربل[١] الحصينة شرقي الموصل، وتم الاتفاق بينهما على أن يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق، فوقعت معركة بين القائد قراجا الساقي التابع لسلجوق شاه عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء[٢] عام ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م[٣]، انتهت بهزيمة زنكي وأسر عدد كبير من قواته، فعبر دجلة ودخل تكريت[٤] حيث أسرع واليها[٥]نجم الدين أيوب بإقامة السفن والمعابر لهم، وإكرام ضيافتهم ، وأحسن نجم الدين إلى زنكي وجنوده، وداوى جراحهم، وقدّم إليهم سائر ما يحتاجون إليه، وأقام زنكي عنده خمسة عشر يوماً ثم ارتحل إلى بلده الموصل[٦]، ولولا ذلك لما استطاع زنكي العودة إلى بلاده، وهناك أعاد تنظيم قواته، بعد أن أنفق عليها أموالاً كثيرة وجهزها بالمؤن والمعدات.

وعندما بلغ شحنة بغداد بهروز موقف نائبه نجم الدين في تكريت من زنكي،

---

(١) إربل: هي قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأسع رقعة، وهي من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. الحموي: المعجم ج١ ص١٣٨ .

(٢) سامراء: لغة في سر من رأى، وهي مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت، فلما ضاقت عساكر المعتصم في بغداد استحدث مدينة في هذا الموقع وقد بدأ البناء فيها قيل عام ٢١٩هـ وقيل ٢٢١هـ. الحموي: نفسه ج٣ ص١٧٤ .

(٣) عاشور: جهاد المسلمين ص١٨٧ .

(٤) عاشور: نفسه ص١٨٧ .

(٥) وقيل كان نجم الدين أيوب دزدار قلعة تكريت ومستحفظاً أي حاكم القلعة. المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص٣٥، ص٤٠ .

(٦) ابن كثير: البداية ج٨ ص٤٧٣.

بعث إليه رسولاً يعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه، بعد أن وقع في يديه، وازداد حرج بهروز لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت- وقيل كان نصرانياً عزيزاً عند بهروز- بسبب تعرضه لإحدى النساء، لذا لم يكن باستطاعة الأخير معاقبة شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه، فلم يكن أمامه سوى طرد العائلة من تكريت.

وفي هذه الفترة الحرجة من أواخر العام ٥٣٢هـ ولِد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير زنكي الذي أحسنوا إليه قبل أعوام عدة، ولم ينس زنكي الإحسان، فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالها الاقطاعات الواسعة، وأتاح للأخوين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه الانخراط في قواته، والإشراف على تربية أبنائه، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين. وظلّت العائلة تنعم بحماية زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم، وعندما استولى على بعلبك عام ٥٣٤هـ عيَّن نجم الدين أيوب والياً عليها، وأقطعه ثلثها، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية، وظل يمارس مهام عمله كوالٍ لزنكي حتى مقتل الأخير عام ٥٤١هـ.

علاقة زنكي بالخلفاء:

تسارعت الأحداث في عام ٥٢٦هـ، إذ تمكن السلطان سنجر من الانتصار على ابني أخيه مسعود وسلجوق شاه بعد أن وحَّدا صفوفهما ضده، وأجلس طغرل بن محمد علي عرش سلاجقة العراق في جمادي الآخرة ٥٢٦هـ/ إبريل١١٣٢م، إلا أن مسعود استطاع بعد سلسلة من الحروب، أن يقضي على منافسيه ويجلس على عرش سلاجقة العراق بموافقة سنجر وذلك في صفر ٥٢٧هـ/ نوفمبر ١١٣٢م، ثم انتصر السلطان مسعود على الخليفة المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في ١٠ رمضان

ووقع الخليفة في الأسر، وظل مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمته جماعة من الباطنية وقتلوه وقد أخذت البيعة بعد مقتل المسترشد بالله[1]، لابنه أبي جعفر منصور الملقب بالراشد بالله (٥٢٩- ٥٣٠هـ) بموافقة السلطان مسعود.

وفي مستهل صفر ٥٣٠هـ وصل زنكي بغداد قادماً من الشام بعد أن استدعاه الراشد واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان المقيم في الموصل، وانضم إلى الأمراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود، لكن الخليفة ألغى الخطبة لمسعود وحولها لداوود بن محمود، خلافاً لما تم الاتفاق عليه مع زنكي، فحدث تدهور في العلاقة بين زنكي والخليفة، لكن سياسة التفاهم عادت من جديد بسبب استيلاء سلجوق شاه على واسط، فطلب الخليفة من زنكي مساعدته لاسترداد هذا الموقع المهم. إلا أن زنكي فشل في هذه المهمة وانتهى زحفه على واسط بعقد صلح مع سلجوق شاه، ومن ثم عادت الشكوك ثانية بين الطرفين، لكن الخليفة الذي كان في وضع حرج نتيجة للضغط السلجوقي، اضطر إلى التفاهم مجدداً معه للاعتماد عليه في مواجهة مسعود الذي توجه على رأس قواته صوب بغداد ودخلها وخلعه عن سدة الخلافة وولّى المقتفي لأمر الله مكانه في ذي الحجة ٥٣٠هـ/ سبتمبر ١١٣٦م، وغادر الراشد بغداد متوجهاً إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي.

وبعد ذلك اضطر زنكي إلى التخلي عن الخليفة المعزول الراشد وتحسنت علاقته بالخليفة الجديد المقتفي لأمر الله وبالسلطان مسعود، بهدف ضمان استمرار حكمه، وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحّدة تقف في وجه الصليبيين، وأقطعه الخليفة بعض أملاكه وزاده في

(١) قصده ٢٤ رجلًا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه، وجرحوه ما يزيد على ٢٠ جراحة ومثّلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه، وتركوه عرياناً، وقُتل معه نفر من أصحابه، وذلك يوم الخميس ٢٧ ذي القعدة على باب المراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة. ابن الأثير: الكامل ص١٦٥٢.

ألقابه. وهذا يدل على أن عماد الدين زنكي أصبح قوة كبيرة يحسب له ألف حساب وتتطلع إليها كل الأطراف.

وبعد وفاة حاكم حلب إيلغازي الأرتقي في رمضان ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، هدد الصليبيون المدينة إلا أن زنكي تمكن من إبعادهم عنها، بعدما أضحى القوة الوحيدة في المنطقة القادرة على الوقوف بوجه الصليبيين والتصدي لأطماعهم[١].

انجازات زنكي:

بدأ عماد الدين زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم المدن التي حوله والقريبة منه، وتحويل السلطة الرسمية التي منحها السلاجقة له، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام، إلى سلطة فعلية، وضم الإمارات الإسلامية في الجزيرة وبلاد الشام والمناطق الشرقية وتوحيدها مع إمارة الموصل، تمهيداً للانتقال إلى الشق الثاني وهو مجابهة الصليبيين، على اعتبار أنه لا يستطيع تحقيق هذا الجانب إلا بضم الإمارات الصغيرة المنتشرة في تلك المناطق، وكانت البوازيج[٢] أولى المواقع التي استولى عليها[٣].

هاجم زنكي جزيرة ابن عمر عام ٥٢١هـ، التي كان يحكمها أحد مماليك البرسقي، فامتنع هذا المملوك عليه، معتمداً على حصانة مدينته، فراسله زنكي وعرض عليه عروضاً مغرية ليقنعه بالاستسلام، لكنه لم يستجب له، فاضطر إلى تشديد الحصار على المدينة ليدخلها عنوة، بعد أن أعجزته الأساليب السلمية عن تحقيق هدفه، وسرعان ما وجد سكانها أن لا طاقة لهم على الصمود، فأعلنوا استسلامهم وفق شروط زنكي، الذي فتحت له الأبواب فدخل القلعة على رأس قواته، ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل

---

(١) طقوش: الزنكيين ص٩٣-٩٨.

(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل، حيث يصب في دجلة. الحموي: المعجم ج١ ص٥٠٣.

(٣) عاشور: جهاد المسلمين ص١٨٢.

غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل، وأهميته العسكرية والاقتصادية[١]. ثم اتجه بعد ذلك إلى نصيبين وإربل في رمضان ٥٢٢هـ/ ١١٢٧م، وسنجار في جمادي الأولى ٥٢٣هـ/ ١١٢٧م[٢].

وبعد الاستيلاء على نصيبين سار عماد الدين زنكي بقواته إلى حران، وهي للمسلمين، وكانت الرها وسروج والبيرة[٣] وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد لخلو البلاد من حامٍ يذب عنها وسلطان يمنعها[٤].

وقد أرسل أهل نصيبين إلى عماد الدين زنكي يستحثونه على الوصول إليهم، ففعل وخرج أهلها واستقبلوه وأطاعوه وسلموا إليه البلد[٥].

ولما مَلَك حران أرسل إلى جوسلين الثاني صاحب الرها وهادنه مدة يسيرة ليتفرغ لإصلاح البلاد وتجنيد الأجناد، وكان أهم الأمور لديه أن يعبر الفرات ويملك البلاد الشامية[٦].

بعد وفاة أمير حلب الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقي عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م وتعدد المطالبين بالسلطة وتنازعهم، طمع أمير الرها جوسلين الثاني، وأمير أنطاكية بوهيمند الثاني بالمدينة، وشن الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها، إلا أن عماد

---

(١) خليل: عماد الدين ص٧٠-٧١، ابن الأثير: الباهر ص٣٦.

(٢) عاشور: جهاد المسلمين ص١٨٢.

(٣) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع، والبيرة حالياً بلدة في تركيا، تسمى بيرة جك، على الفرات.الحموي: المعجم ج١ ص٥٢٦، ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص٤٠٧.

(٤) عاشور: جهاد المسلمين ص١٨٢، ابن واصل: الكروب ج١ ص٢٦.

(٥) عاشور: نفسه ص١٨٢.

(٦) ابن واصل: الكروب ج١ ص٣٦.

الدين زنكي أراد أن يسبقهما إليها لاتخاذها قاعدة لمد نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، خصوصاً أنه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فغادر الموصل في طريقه إليها وضمَّ بزاعة[1] ومنبج، وما إن وصل حلب عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م حتى حاصرها ثم استسلم أهلها، ودخلها ونظم أمورها. ولعل من أهم أسباب اتجاهه إلى حلب أنها :

- تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية.

- غدت منذ عهد طويل، قاعدة لا يمكن من دونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام.

في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، ما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، لذلك كان ضمها من قبل أي قائد إسلامي، بمثابة فتح الطريق أمامه ليتبوأ مركز القيادة في حركة الجهاد.

وبذلك تحققت الوحدة بين الموصل وحلب، مرة أخرى وحصل عماد الدين زنكي على موقع مهم، وتهيأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومجابهة أخطار الصليبيين، كما أدى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب[2].

واعتبر المؤرخ آرنست باركر حلب بأنها «مركز التوازن في مجموعة السياسات الحادثة وقتذاك، فإذا خضعت حلب لدمشق أو الموصل أو الصليبيين ترتب على ذلك حشد القوى من كلا الجانبين الإسلامي والصليبي».

---

(١) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة. الحموي:المعجم ج١ ص٤٠٩، ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص ٢٩٤.

(٢) طقوش: الزنكيين ص١٠٠-١٠١.

وأرجع باركر تطلع أمراء الموصل، آق سنقر وزنكي إلى إقامة إمارة مستقلة تضم حلب، لما لها من أهمية حربية، إذ أن موقعها باعتبارها قلعة ضد الصليبيين، يجعل لأمير الموصل عند امتلاكها من الصفة ما يعتبر المدافع عن الإسلام ضد الكفار، فضلاً عما اشتهرت به من موارد وثروة مما يزيد في قوة الموصل المادية(١).

وفي العام ٥٢٤هـ سار زنكي إلى الشام، وقد جمع واحتشد، وأعدّ واستعد، وصمم العزم على الجهاد، وإجلاء أهل الزيغ والعناد، وإعلاء كلمة الله تعالى، وإدحاض كلمة الشيطان، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الشيطان، وقصد إلى حصن الأثارب(٢)، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس، كل معروف بشدة المراس(٣).

وتمكّن زنكي من الانتصار على الصليبيين عند هذا الحصن، ويعد هذا الانتصار هو الأول له عليهم، وانتزع الحصن منهم بعد معركة شرسة، فقد كان الحصن أضر شيء على أهل حلب، إذ بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ، وكان مَنْ به مِن الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية(٤)، وهو من أخطر ثغورهم، وهو من المسلمين في نحورهم، فتابع الشهيد قتالهم، وأدمن نزالهم، وصب عليهم العذاب من كل مكان(٥).

---

(١) باركر: آرنست، الحروب الصليبية، ترجمة الدكتو السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة ص١٥٤.

(٢) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ٣ فراسخ. وتعرف الآن بـ"الأتارب"، وهي بلدة ومركز ناحية تتبع منطقة جبل سمعان، من قرى محافظة حلب، وتبعد عن حلب ٣٠ كم نحو الجنوب العربي. الحموي: المعجم ج١ ص٨٩، ابن العديم: حاشية الزبدةج١ ص١٢٩،٣٦٦.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٣٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل ص ١٦٣٩.

(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٣٩.

وقال باركر: «هاجم، أي عماد الدين زنكي، الأثارب وهي من أمنع قلاع الصليبيين المتاخمة لحلب، واشتبك في قتال مرير مع الصليبيين.

انتهى الاشتباك بسقوط القلعة، ومصرع عدد كبير من المقاتلين، ومن بقي من حامية القلعة وقع في أسره»، «..وعاد زنكي إلى الموصل مظفراً، وأضحى اسمه مثلاً للشجاعة والشدة، وذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين»[1].

ولم يكن هذا الانتصار عادياً، إنما كان له أثر كبير في مسيرة عماد الدين زنكي، فقد أشعره أن إمكانية الانتصار على الصليبيين ليس بالأمر الصعب، متى ما تواجدت الإرادة والعزيمة، والتوكل على الله عز وجل، وبذل الأسباب لتحقيق الهدف، كما كان هذا الانتصار نقطة تحول في موازين القوى بين المسلمين والصليبيين[2]، فلما استقر له النصر وآل به إلى الظفر الصبر، رجع إلى الحصن فملكه عنوة وقهراً، ثم رحل إلى حصن حارم، وصالحه الفرنج على المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، وهادنهم وعاد عنهم، وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد وأعلنت في الحاضر والباد[3].

وأدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضم دمشق والمدن المحيطة بها، وأقام محور «الموصل، حلب، دمشق» فدخل حماة في شوال ٥٢٤هـ/ سبتمبر ١١٣٠م، إلا أن حاكم دمشق شمس الملوك إسماعيل[4] بن

(١) باركر: الحروب الصليبية ص١٥٥-١٥٦.

(٢) أبو سعيد: الجبهة ص١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٤٢.

(٤) إسماعيل بن بوري: تملك بعد أبيه في رجب ٥٢٦هـ، قتل في ربيع الأول ٥٢٩هـ وله ٢٣ عاماً. الذهبي: سير ج١٩ ص ٥٧٥-٥٧٦.

بوري بن طغتكين[1] تمكن من استعادتها في عام ٥٢٧هـ.

ثم استطاع عماد الدين في أثناء عودته إلى حلب بعد أن فك الحصار عن دمشق، إعادة ضم حماة إلى أملاكه.

وفي عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م طلب إسماعيل من زنكي الحضور على وجه السرعة لتسلم المدينة، بعد أن أساء السيرة وظلم الرعية فتحزبوا ضده، وقال في رسالة بعثه إلى عماد الدين زنكي: «إن أهملت هذا الأمر استدعيت الفرنج، وسلمت دمشق إليهم، وكان إثم المسلمين في عتقك»[2]. فأدرك زنكي أن هذه الفرصة لا يمكن أن تعوض، وأن الوقت قد حان لتوحيد بلاد الشام الإسلامية، فأسرع إليه، إلا أن والدة حاكم دمشق صفوة الملك زمرد خاتون دبرت مؤامرة ضد ابنها وتمت تصفيته في ربيع الآخر ٥٢٩هـ/ أوائل فبراير ١١٣٥م، وتم تنصيب أخيه شهاب الدين محمود بن بوري بن طغتكين.

وبعد أن فشل زنكي في الحصول على حمص ودمشق بالقوة، أراد أن يحقق هدفه بالمصاهرة، فتقدم طالباً يد صفوة الملك زمرد خاتون والدة شهاب الدين الحاكم الجديد، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي، فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة، وتمت إجراءات العقد في ١٧رمضان٥٣٢هـ/ يونيو١١٣٨م، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصاً كجزء من الاتفاق،

(١) بوري بن طغتكين: تاج الدولة بوري بن صاحب دمشق طغتكين مولى السلطان تتش السلجوقي، ملك بعد أبيه في صفر ٤٢٢هـ، وكان ذا حلم وكرم، ولد عام ٤٧٨هـ وقتل في ٥٢٦هـ، وحلفوا من بعده لولده شمس الملوك إسماعيل. الذهبي: نفسه ج١٩ ص٥٧٤-٥٧٥، مات بعد أن جرحه الباطنية جرحين، فبرئ من أحدهما، وأضعفه الآخر. أبو الفدا: المختصر ج٢ ص٦٩.

(٢) حمادة: محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م ص١٩٤.

على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق كبعرين واللكمة[١] والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من الأتابك شهاب الدين محمود مستهدفاً من وراء ذلك إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب، لكنه لم يحصل إلا على حمص فقط، أما ضم دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج، فلم يتحقق. وقال ابن الأثير: «..وإنما حمله على الزواج بها، ما رأى من تحكمها في دمشق، فظن أنه يملك البلاد بالاتصال بها، فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها»[٢].

بعد مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله، كتب الأمراء إلى أخ غير شقيق له هو محمد صاحب بعلبك[٣]، وكان صبياً لم يبلغ الحلم، فدخل دمشق، فملكوه، ولقبوه جمال الدين[٤]، فعز على زمرد خاتون أن يقتل ابنها ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها، فراسلت عماد الدين، كما راسله بهرام شاه أخو جمال الدين محمد.

ووجد عماد الدين أن الفرصة تهيأت من جديد للتدخل في شؤون دمشق، فأعد جيشاً خرج على رأسه في ذي العقدة ٥٣٣هـ/ يوليو١١٣٩م لمحاصرتها واقتحامها، لكنه أدرك صعوبة ذلك بعد أن تحالفت دمشق مع الصليبيين، الذين أيقنوا أن عماد الدين زنكي الذي يمتلك الموصل وحلب وحماة وحمص، لا ينبغي أن يمتلك دمشق، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق سيصبح واقعاً، ما

---

(١) اللكمة: حصن بالساحل قرب عرقة. الحموي: المعجم ج٥ ص٢٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٦٦٠.

(٣) بعلبك: قيل هو اسم مركب من بعل: اسم صنم، وبك أي أصله من بكّ أي دق عنقه، وهي مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، بينها وبين دمشق ٣ أيام، وقيل ١٢ فرسخاً من جهة الساحل. الحموي: المعجم ج١ ص ٤٥٣-٤٥٤.

(٤) جمال الدين: توفي جمال الدين محمد بن طغتكين في شعبان ٥٣٤هـ، وقال ابن تغري بردي: «ولم أدر مات قتيلاً أم حتف أمره» ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٦٥-٢٦٦.

يعني طردهم من الشرق الإسلامي.

وفك عماد الدين الحصار عن دمشق عندما سمع بتقدم الصليبيين، وعاد إلى حمص، ومن ثم فشلت جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه رغم ذلك ظل يفكر بهذا الهدف طوال فترة حكمه[١] .

لم تتوقف انتصارات زنكي عند حدود حصن الأثارب، وإنما انتزع قلعة بعرين[٢] من أيدي الصليبيين عام ٥٣١هـ، رغم أن هذه القلعة تعد من أمنع معاقلهم وأحصنها، وهي تقارب مدينة حماة.

فقد زحف زنكي إلى بعرين فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم، وساروا في قضهم وقضيضهم[٣] وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك زنكي، ليرحِّلوه عن بعرين، فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم أجلت[٤] الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، واحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه منهم، فحصرهم زنكي فيه، ومنع عنهم كل شيء، حتى الأخبار، فكان من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم

---

(١) طقوش: الزنكيين ص١١٥- ١٢٦.

(٢) قلعة بعرين: بعرين أو بارين تقارب مدينة حماة، ومن أمنع معاقل الفرنج وأحصنها، ومدينة بعرين بين حلب وحماة من جهة الغرب، وهي حالياً من قرى منطقة مصياف في محافظة حماة، وتبعد عن حماة مسافة ٤٢ كم. ابن الأثير: الكامل ص ١٦٥٩، الحموي: المعجم ج١ ص٣٢١، ابن العديم: حاشية الزبدة ج٢ ص٤٥١.

(٣) قضهم وقضيضهم: أي بأجمعهم، أو بجمعهم ولم يدعوا وراءهم شيئاً. ابن منظور: اللسان ج٧ ص٤٠٢.

(٤) أجلت: انكشفت ، أجلى الله عنك أي كشف عنك، يقال ذلك للمريض، وانجلى الظلام إذا انكشف، وفي حديث الكسوف «تجلَّت الشمس» أي انكشفت وخرجت عن الكسوف، ويقال تجلت وانجلت. ابن منظور: نفسه ج٢ ص١٩١.

لشدة ضبط الطرق وهيبته على الجند[١].

أصيب الصليبيون بصدمة عنيفة نتيجة لانتصار عماد الدين زنكي في معركتي حصن الأثارب وحصن بعرين، وأدركوا أنهم يواجهون تطوراً جديداً وخطيراً في حركة المقاومة الإسلامية، لهذا فهم يحتاجون في مواجهته إلى عون خارجي[٢].

لذلك اتجه القساوسة والرهبان إلى بلاد الروم والفرنج وما والاها مستنفرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومَن فيها مِن الفرنج، فإنه سيملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد بيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا بلاد الشام[٣].

فلما دخلت السنة التالية وصل الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين[٤] بقواته مع قوات الفرنج إلى بزاعة، واحتلوها بعد حصار دام سبعة أيام، وتحديداً في٢٥رجب٥٣٢هـ/ ١١٣٨هـ.

ثم اتجهوا إلى حلب إلا أن أهلها استنجدوا بعماد الدين زنكي الذي كان يحاصر حمص، فأرسل معهم الكثير من العساكر، فضاعت على الإمبراطور فرصة مباغتة المدينة، وهو الذي عقد آماله في أخذها على حين غرة.

وأدرك بعد فوات الأوان أنه ارتكب خطأ عسكرياً في تمهله في الزحف، ما أتاح للمدينة فرصة الحصول على إمدادات قوية من عماد الدين زنكي، وقويت قلوب أهل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٦٥٩.

(٢) أبو سعيد: الجبهة ص١٧٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٦٥٩.

(٤) يوحنا: كان في الثلاثين من عمره عندما اعتلى عرش الدولة البيزنطية عام ١١١٨م. رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٣٢-٣٣٤، بعض المصادر العربية كانت تسمي الإمبراطور البيزنطي يوحنا باسم «كالياني» كابن العديم في الزبدة ج٢ ص٤٥٤.

حلب[١].

اتجهت القوات المتحالفة بعد ذلك إلى معرة النعمان[٢] ودخلوها كما دخلوا كفر طاب[٣] وأضحوا على أبواب شيزر الإسلامية الكبرى[٤] ذات الحصانة الطبيعية التي تسيطر على حوض نهر العاصي[٥].

وأدرك حاكم القلعة العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ أنه لا قِبل له بهذه القوات، لهذا لم يكن أمامه سوى طلب النجدة من عماد الدين زنكي، فسار إليه زنكي فنزل بالقرب من نهر العاصي، وكان كل يوم يسير إلى شيزر هو وعساكره، ويقفون بحيث يراهم الروم الذين كانوا في مواقعهم الحصينة ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم، ثم أرسل إلى إمبراطور الروم وقال له: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم»[٦].

كان زنكي قد أولى جيشه الاهتمام الكبير، لأنه يمثل عصب دولته، وقد أعده ليكون مستعداً لمثل هذه الأيام ، لذا صارت لديه قوة عسكرية كبيرة، ومتنوعة في آن

---

(١) طقوش: الزنكيين ص١٤٣، ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٥٦ .

(٢) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص، بين حلب وحماة، ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين، ومنها كان أبو العلاء المعري.
الحموي: المعجم ج٥ ص١٥٦.

(٣) كفر طاب:بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة، ليس لها شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج، وتبعد خرائب كفر طاب عن خان شيخون، إلى الغرب منها، قرابة ثلاثة كم. الحموي: نفسه ج٤ ص٤٧٠.
ابن العديم:حاشية الزبدة ج١ ص٣٥٧.

(٤) طقوش: الزنكيين ص١٤٣.

(٥) طقوش: نفسه ص١٤٣ نقلًا عن ابن واصل: الكروب ج١ ص٧٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل ص١٦٦١.

واحد، إذ تألف جيشه ، عناصر من الخرسانيين والحلبيين والتركمان، بالإضافة إلى عناصر غير نظامية، مثل الفقهاء والمتصوفة، وغيرهم وكذلك كان لديه العديد من الشباب المنضوين في الجيش من خلال التجنيد الإلزامي، الذي فرضه على بعض المناطق.

كما كان من ضمن جيشه رجال المتخصصين في الاستخبارات، وهو ما جعله يعرف الدقائق العسكرية لأعدائه[(١)].

ومع كل هذا لم يكن لزنكي بالروم قوة، وإنما كان يتبع معهم الحرب النفسية، ويبدو أنه كان يشعر بضعف قواته أمام القوات المتحالفة لهذا لجأ إلى تلك المناورة العسكرية[(٢)] وكاد ينجح في استدراج الفرنج الذين هوّنوا الأمر على الإمبراطور وطلبوا مقاتلته، لكنه قال لهم: «أتظنون أنه ليس له من العساكر إلا ما ترون؟! إنما هو يريد أن تلقوه، فتأتيه من نجدات المسلمين ما لا حد له»[(٣)].

ولم يكتف عماد الدين زنكي بتلك الخطة إنما حاول أن يشتت جمع تلك القوات ويفسد فيما بينها، ويشكك كل طرف بنوايا الآخر، فقد لجأ إلى أسلوب الحيلة والخداع[(٤)].

إذ كان يرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يوهمه أن الصليبيين خائفون منه، ويرسل إلى الصليبيين يخوفهم من إمبراطور البيزنطيين، ويقول لهم إنه: «إن مَلكَ في الشام

(١) عوض: محمد مؤنس أحمد، في الصراع الإسلامي- الصليبي.. السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٤م، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية الهرم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

(٢) عاشور: جهاد المسلمين ص١٩٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٦٦١.

(٤) الصلابي: الزنكية ص١٢٩.

حصناً واحداً ملَكَ بلادكم جميعاً»[١].

فنجحت خطة زنكي وساد الشك والريبة بين الطرفين، فرحل البيزنطيون عن شيزر، وتركوا المجانيق وآلات الحصار في مكانها، فلما سمع زنكي برحيلهم سار خلفهم وأخذ جميع ما تركوه[٢].

واستطاع عماد الدين زنكي في ٤ صفر ٥٣٤هـ/ نوفمبر١١٣٩م، أن يضع يده على بعلبك التي أهداها إلى معين الدين أنر[٣] من قبل.

وعيَّن عليها نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، كما تمكن من الاستيلاء على خمسة مواقع صليبية محيطة بحلب وهي: الأثارب، زردنا، تل اغدي، معرة النعمان، وكفر طاب.

وتوسع بين عامي (٥٣٦هـ - ٥٣٨هـ/ ١١٤١ - ١١٤٣) في الجنوب الغربي، فضم الحديثة [٤] الواقعة على الفرات، وعانة[٥] القريبة منها، وفي نهاية عام ٥٣٧هـ ومطلع العام التالي استولى على عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر.

---

(١) ابن واصل: الكروب ج١ ص٨٢.

(٢) ابن واصل: نفسه ج١ ص٨٢، ابن الأثير: الباهر ص ٥٦.

(٣) معين الدين أنر: توفي في عام ٥٤٤هـ ودفن بدمشق بقبته، وبنى في دمشق مدرسته المعينية لتدريس المذهب الحنفي، كان مملوكاً للملك طغتكين.
ابن واصل: حاشية الكروب ج١ص٩، الذهبي: السير ج٢٠ ص٢٢٩-٢٣٠.

(٤) الحديثة: سميت بذلك لما أحدث بناؤها ثم لزمها فصار علمًا. الحموي:المعجم ج٢ ص٢٣٠.

(٥) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت، في أعمال الجزيرة، وهذه البلدة مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة، وبها قلعة حصينة. وإليها هرب الخليفة العباسي القائم بالله بعد أن ثار عليه البساسيري.
الحموي: نفسه ج٤ ص٧٢.

مثل: مدينة طنزة(١)، وأسعرد(٢) والمعدن(٣) وحيزان(٤)، وحصن الزوق، وفطليس وباتاسا، وحصن ذي القرنين، وأنيرون(٥).

فتح الرُّها(٦):

كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق الإسلامي عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة الملك غودفرى، وتميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات، حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية(٧).

ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجي، وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط

(١) طنزة: بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: نفسه ج٤ ص٤٣.

(٢) أسعرد: ويقال لها سعرت وهي على جبيل بالقرب من شط دجلة، وهي عن ميافارقين على مسيرة يوم ونصف اليوم. ابن الأثير: حاشية الباهر ص٦٦.

(٣) المعدن: قرية من قرى زوزون من نواحي نيسابور، وقيل: بلدة في أرمينية قرب منبع نهر دجلة، وسميت بهذا الاسم لوجود مناجم لمعدني النحاس والحديد. الحموي: حاشية المعجم ج٥ ص١٥٤. المقريزي: حاشية السلوك ج١ ق٣ ص٦٩٠.

(٤) حيزان: بلد فيه شجر وبساتين كثيرة ومياه غزيرة، وهي قرب أسعرت من ديار بكر. الحموي: المعجم ج٢ ص٣٣١.

(٥) أنيرون: من قلاع ديار بكر. ابن العديم: حاشية الزبدة ج٢ ص٤٦٦.

(٦) الرُّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر. وهي أورفا الحالية في تركيا مقابل الحسكة السورية إلى الشمال منها. الحموي: المعجم ج٣ ص١٠٦، تاريخ الحروب الصليبية- وليم الصوري ج١ ص٤٠، الجنزوري: علية عبد السميع، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ص٢٥-٢٧.

(٧) الغامدي: الجهاد ص٢٣٠.

المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[١].

واعتبرها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية[٢]، فهي وفيرة الثروات، ساعدت أمراء الرها في توسيع رقعتهم، فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندان وعين تاب غرباً إلى مشارق، ومن بهنسي وكيسوم[٣] شمالًا إلى منبج جنوباً[٤]، وكانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها[٥] لما لها من مكانة في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب[٦]، وهي تسيطر على الخطوط الرئيسة بين العراق وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ، كما كانت الحاجز الذي يحمي المستعمرات الصليبية الأخرى في الشام من هجمات المسلمين من الشرق.

كان عماد الدين زنكي يحب التوسع في الملك، والذب عن حوزة الإسلام، ويدرك بثاقب نظره أن الأعداء محيطون بمملكته، لا ينجيها منهم إلا القضاء على إحدى إماراتهم في الرها وما إليها، ولا يتقي بأسهم بمناوشات وحروب تستصفي معها بعض القلاع والحصون ثم يستعيدونها وبالعكس[٧].

---

(١) الغامدي: نفسه ص٢٣٠.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٦٦، وقيل أن من أسباب ارتفاع مكانة الرها الدينية أنها تضم رفات بعض الحواريين مثل توما ونداوس إضافة إلى ما أشار إليه أبو زينب أسقف قيصرية في كتابه عن تاريخ الكنيسة، من خطاب ملكها أبجر إلى السيد المسيح . الجنزوري: الرها ص٣٠.

(٣) كيسوم: قرية مستطيلة من أعمال سميساط ولها عرض صالح، وسوق ودكاكين وافرة، وفيها حصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شبث، تحصن فيه من المأمون حتى ظفر به عبدالله بن طاهر، فأخرجه ثم أحدث بعدُ فيها مياهاً وبساتين. الحموي: المعجم ج٤ ص٤٩٧.

(٤) الغامدي: الجهاد ص٢٣٠.

(٥) الصلابي: الزنكية ص١٣٤.

(٦) الصلابي: نفسه ص١٣٤.

(٧) علي: محمد كرد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، ص١٥.

ورغم انشغاله بتوحيد الجبهة الإسلامية في الشام والجزيرة، إلا أن أهمية الرها لم تغب عن باله أبداً[١]، لهذا لم يزل لها طالباً، وفي تملكها راغباً، ولانتهاز الفرصة فيها مترقباً،لا يبرح ذكرها وجائلاً في خلده وسره، وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه[٢].

لكنه يعلم جيداً أنه لا يمكن أن يتحقق فتحها إلا بالحيلة، لهذا عزم على إخراج أميرها جوسلين الثاني وقواته منها، وكان يعلم أنه لو سار مباشرة لقتال أمير الرها، فإن القوات الصليبية سوف تجتمع من كل النواحي لقتاله والدفاع عنها، علاوة على حصانتها وقوتها[٣].

وهكذا انصب اهتمام زنكي على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه في منطقة الرها ليطلعوه على تحركات أميرها الذي ما إن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته، وبالفعل وصل الأمر إلى زنكي، فنادى في العسكر بالرحيل، وألا يتخلف عن الرها أحد، وجمع الأمراء عنده، وقال: « قدموا الطعام»، ثم قال: « لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يُطعن غداً معي على باب الرها»، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد، وصبي لا يُعرف، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب.

فقال الأمير لذلك الصبي: ما أنت في هذا المقام؟ فقال عماد الدين: دعه فوالله إني

---

(١) الغامدي: الجهاد ص٢٣١.

(٢) القلانسي: ذيل ص٢٧٩.

(٣) النويري: شهاب الدين عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب الوثائقية القومية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ج ٢٧ ص١٤٣، الغامدي: جهاد ص٢٠٠.

أرى وجهاً لا يتخلف عني[١].

وحينئذ أمر عماد الدين بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير، والجند في المسير، ويهدد لمن عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر، وأقبل مسرعاً كالسهم الصادر عن وتره، والسيل الصائر إلى مستقره، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً[٢]، وزحف بهم نحو البلد يقدمه، والشجاعة تقدمه، فكادت الأرض تزلزل، والنهار بسواد الليل يسربل[٣]، وأحاط بالرها من جميع الجهات، وحال بين من فيها وبين ما يصل إليها من المسير والأقوات من خارجها، وشدد عليها الحصار، حتى أن الطير في السماء كان لا يستطيع الطيران فوق الرها، خوفاً من السهام[٤]، وكان زنكي أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبي .

وطلب عماد الدين من أهل البلد الاستسلام فأبوا ذلك، وامتنعوا من الإذعان، فاستخار الله تعالى في قتالهم، خوفاً من أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه، ويستنقذونه منه، وبلغ الخبر إلى الفرنج، فقاموا وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وجمعوا فارسهم وراجلهم، وشابهم وكهلهم، وحرصوا على السرعة خوف الفوات، وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات، لعله يجد فرصة ليدخل إليها، فحيل بينه وبينها[٥].
وفي ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ/ ٢٨نوفمبر ١١٤٤م وبعد مرور ثمانية وعشرين يوماً من القتال، اجتاحت قوات المسلمين المدينة، وبعد يومين استسلمت القلعة، وسلم القس اليعقوبي برصوما الرها لزنكي[٦].

(١) ابن واصل: الكروب ج١ ص٩٣.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص٦٨.
(٣) ابن الأثير: نفسه ص٦٨.
(٤) ابن القلانسي: الذيل ص٢٧٩.
(٥) ابن الأثير: الباهر ص٦٩.
(٦) الصلابي: الزنكية ص١٣٦ نقلًا عن خليل: عماد الدين ص١٥٣.

وعندما دخل زنكي المدينة أعجبته، ورأى أنه لا يجوز في السياسة تخريب مثلها، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره، ولم يفقد إلا الشاذ النادر، الذي أخذ وفارق من أخذه العسكر، فعاد البلد إلى حاله الأول وجعل فيه عسكراً يحفظه[١] ، وبعد ذلك عَيَّن زنكي على المدينة قائده زين الدين علي كوجك[٢]، وتابع طريقه لاستكمال فتح ما بقي من المدن التابعة للرها[٣].وروى مؤرخ مملكة بيت المقدس وليم الصوري[٤] كيفية قيام عماد الدين زنكي فتح الرها فقال لقد: «حاصر زنكي مدينة الرها مع جيش قوي وذلك خلال الفترة الفاصلة بين وفاة ملك بيت المقدس فولك واعتلاء الملك بلدوين للعرش»[٥]، «ولم يتوقف اعتماده على أعداد شعبه وقوته فقط، بل أيضاً على حقيقة أن نزاعاً خطيراً نشب بين ريموند أمير أنطاكية وجوسلين أمير

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٦٧٣.

(٢) كوجك: تعني القصير أو الصغير، وقيل اللطيف القدر.ابن تغري: حاشية النجوم ج٥ ص٣٧٨، الحنبلي: شذرات ج٣ ص١٣٨، واسمه علي بن بكتكين ولقبه زين الدين، وقد تعرف زنكي عليه أيام طفولته، ولشدة حب زنكي له واعتماده عليه أقطعه عدداً من المدن المهمة والقلاع التي استولى عليها مثل إربل وعقر الحميدية وشهرزور والرها، قال عنه زنكي : «إنه يخاف الله ولا يخافني». خليل: عماد الدين ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣) الغامدي: الجهاد ص٢٣٦.

(٤) وليم الصوري: ولد عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ في القدس، أتقن لغات عدة مثل العربية والفرنسية واللاتينية والإغريقية، ترأس أساقفة مدينة صور، أصبح مؤرخ بيت المقدس عام ١١٦٧م بناء على طلب الملك عموري، قيل أن وليم الصوري توفي عام ١١٨٥م. وهو: مؤرخ تغلب عليه الصفة العلمية والتدليل المنطقي، وعموري الأول هو الذي طلب منه تأليف كتاب عن الحروب الصليبية، وصنفه في الفترة من١١٧٠- ١١٨٣م . الصوري: تاريخ الحروب ص٦٩-٩٢، باركر: الحروب الصليبية ص١٩٣-١٩٤، عطية: حسين محمد، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية،الأزاريطة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ص٣٤.

(٥) الصوري: تاريخ الحروب ص٧٣٧، والمقصود هنا بلدوين الثالث الذي اعتلى العرش من ١١٤٣- ١١٦٢م..

الرها، وكانت مدينة الرها تقع على مسافة سير يوم واحد فيها وراء نهر الفرات، وكان جوسلين قد تخلى عن منزله هناك خلافاً لعادة أسلافه، وأقام مسكنه الدائم بالقرب من نهر الفرات، عند قلعة تل باشر، وكان خصب الريف الواقع في تلك المنطقة المجاورة، والمتعة التي قدمها ذلك المكان قد دفعاه ليقوم بهذا التغيير، وابتعد كثيراً في تل باشر عن الإزعاج الذي كان يسببه أعداؤه، وحصل على الفراغ للاستمتاع بالمسرات والترف من كل نوع، ولم يشعر بأي مسؤولية نحو المدينة الجليلة كما كان يتوجب عليه ذلك»[١].

بينما كان لرنسيمان رأي آخر، فقد رأى أن خروج جوسلين ليس للمتعة، كما يقول الصوري، وإنما «لمساندة قره أرسلان الأرتقي أمير ديار بكر الذي تحالف منذ زمن قريب مع جوسلين، ولتعزيز التحالف بينهما خرج جوسلين من الرها بجيش كثيف، قاصداً نهر الفرات، والواضح أنه أراد بذلك قطع أسباب الاتصال بين زنكي وحلب»[٢]. ويواصل الصوري سرد القصة: «جمع زنكي عدداً لا يحصى من قوات الفرسان من سائر أنحاء الشرق، واستدعى أيضاً أهالي المدن المجاورة، وحاصر الرها وسد بإحكام جميع المداخل إلى المدينة، بحيث لم يتمكن المحاصرون من الخروج، كما لم يتمكن أي امرئ من الدخول»[٣].

وقال: «ازداد أمل زنكي كثيراً بالاستيلاء على المدينة عندما وجدها بلا مدافعين عنها، ووضع جنوده في دائرة حول المدينة، ووضع رؤساء الفيالق في مواقع مفيدة وطوق المدينة، وسحقت بالحجارة والقذائف المقذوفة من الآلات الحربية الأسوار باستمرار»[٤]. وذكر: «واصل زنكي مهاجمة المدينة دون انقطاع، وألحق بها جميع

(١) الصوري: نفسه ص٧٣٧.

(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٧٩.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب ص٧٣٨.

(٤) الصوري: نفسه ص٧٣٨.

الأضرار، ولم يدع وسيلة من الوسائل يمكنها أن تخدم زيادة في محن السكان وتساعده في الاستيلاء على المدينة، وأرسل عمال الحفر خلال ممرات سرية فحفروا الأنفاق تحت السور، فدعمت هذه الأنفاق بعوارض حرقت بعد ذلك، وانهار جزء ضخم من السور بعد احتراق الأخشاب، وترك ثغرة وفرت مدخلاً للعدو كان عرضه أكثر من مائة ذراع، وتم هكذا الحصول على الممر المنشود، واندفعت الفيالق مع بعضها من جميع الاتجاهات، ودخلت المدينة»[١].

وروى صاحب ذيل تاريخ دمشق ابن القلانسي رواية شبيهة برواية الصوري، إذ قال: «..ونصب أي زنكي على أسوارها، أي مدينة الرها، المناجيق[٢]ترمي عليها دائماً والمحاربة لأهلها مضراً ومواظباً، وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقب الماضون فيها، فنقبوا في مواضع عدة، عرفوا أمرها، وتيقنوا نفعها وضرها، ولم يزالوا على هذه الحال في الإيغال في النقب، والتمادي في بطن الأرض، إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج السور، فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة، وفرغوا من ذلك، ولم يبق غير إطلاق النار فيها، فاستأذنوا عماد الدين في ذلك، فأذن لهم بعد أن دخل في النقب وشاهد حاله، واستعظم كونه وهاله، فلما أُطلقت النار في تعليق النقب، تمكنت من أخشابها وإبادتها، فوقع السور في الحال، وهجم المسلمون البلد

(١) الصوري: نفسه ص٧٣٩.

(٢) المناجيق: أو المجانيق والمنجنيقات ومفردها المنجنيق أو المنجنوق أو المنجميق، وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطي يقوم مقام المدفع حالياً، وإن كانت قذائفه من الحجارة، وقد وصفه القلقشندي في صبح الأعشى (ج٢ ص١٤٤) بأنه «آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل وذنبه خفيف، تجعل كفة المنجنيق التي تحمل الحجر يجذب حتى ترتفع أسافله الأعلى أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه».
القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي صبح الأعشى في كتابة الإنشا، إصدار «الذخائر» العدد١٣٠ نصف شهرية منتصف نوفمبر ٢٠٠٤، طبعة مصورة عن دار الكتب الخديوية، ابن واصل: حاشية الكروب ج١ ص١٨٠.

بعد أن قُتِل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم، وقُتل من الإفرنج والأرمن وجُرح، ما أوجب هزيمتهم عنه، وملك البلد في يوم السبت ٢٦ جمادي الآخرة، منها ضحوة النهار»[١].

وقد لجأ زنكي مع أهل الرها إلى سياسة بعيدة النظر، وهي السياسة التي اتبعها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي، وتتمثل في تشجيع المسيحيين المحليين مثل السريان والأرمن وغيرهم، وإحاطتهم بعطفه ورعايته، والسماح لمن غادر منهم المدينة، تحت تأثير الاضطهاد الذي تعرضوا له من الصليبيين الكاثوليك، بالعودة إلى مدينتهم، وبذلك أوجد لنفسه دعامة محلية تؤيده ويستند إليها في حكم الرها[٢].

بعد أن فتح زنكي الرها، عفى عن رجالها من السريان والأرمن والأرثوذكس، ولم ينتقم إلا من الصليبيين الكاثوليك، كذلك احتفظ زنكي للأرمن والسريان بكنائسهم، وهكذا لم يلبث أن اطمأن أهل الرها الأصليين على مصيرهم، وعاد البلد إلى حاله الأول، واكتفى زنكي بأن ترك فيها حامية صغيرة للدفاع عنها، وبعبارة أخرى عادت الرها إلى ما كانت عليه قبل استيلاء الصليبيين عليها في نهاية القرن الحادي عشر، مدينة مسيحية الطابع، معظم سكانها من المسيحيين الشرقيين، الأرمن والسريان، وتدين بالتبعية للأتراك[٣]. ورغم أهمية الرها بالنسبة للنصارى عامة، وخطورة فتحها على الصليبيين إلا أن أياً منهم لم يقم بعمل سريع مباشر ضد عماد الدين[٤]، ولم يحركوا ساكناً، وإنما وقفوا جميعاً لما يحدث موقف المتفرج!.

وأرجع المؤرخون السبب في ذلك إلى صغر سن أمير بيت المقدس بلدوين الثالث

(١) ابن القلانسي: الذيل ص٢٧٩.
(٢) عاشور: الحركة ج١ ص٤٨١.
(٣) عاشور: نفسه ج١ ص٤٨١- ٤٨٢.
(٤) طقوش: الزنكيين ص١٥٥.

الذي ما زال قاصراً وتحت وصاية أمه، وأيضاً ضعف أمير أنطاكية ريموند بواتييه[١].

وسخر وليم الصوري من تحرك أمير الرها المتأخر لإنقاذ إمارته عندما شرع يجمع قواته بكل اجتهاد ولكن بعد فوات الأوان بقوله : «.. وكان مثله مثل الذي يقوم بتحضير طقوس جنائزية للموتى الذين أهمل تقديم المساعدة إليهم عندما كانوا مرضى ومتضرعين»[٢].

بينما قدّم رنسيمان العذر لجوسلين عندما لم يقدم المساعدة لإمارته ، إذ قال: «غير أن جيش جوسلين لم يكن من القوة ما يكفي لخوض معركة مع جيش زنكي، واعتقد جوسلين أن استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم فترة من الزمن، وفي وسعه وهو بتل باشر، أن يقطع طريق الإمدادات التي يطلبها زنكي من حلب»[٣].

وقيل أن إمارة بيت المقدس أرسلت جيشاً إلى الرها انضم إليه بعض الفرنجة من بقية الإمارات، لكنه لم يستطع الوصول، ففي رمضان ٥٣٩هـ/ مارس١١٤٥م علم زنكي باجتماع هذا الجيش في تل عدى شمال أنطاكية فأرسل إليهم جيشاً كبيراً من التركمان أعمل فيهم الأسر والقتل، وشتت جموعهم فرجعوا خاسرين[٤].

وأرجع المؤرخ ميخائيل السرياني سبب تفرق الجيوش الصليبية إلى خوفهم من

---

(١) عاشور: سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥م،ج١ ص٤٨٣، وريموند بواتييه هو الابن الأصغر لدوق اكويتانيا وليم التاسع المقيم في بلاط ملك انجلترا هنري الأول، وفي صفر ٥٥٤هـ/ ٢٩ يونيو ١١٤٩م بالقرب من إنب شرقي نهر العاصي وقعت معركة بين ريموند بواتييه ونور الدين محمود، تمكن خلالها الأخير من تحقيق الانتصار، وسحق غالبية الجيش الصليبي، وكان من ضمن القتلى ريموند بواتييه نفسه. عطية: أنطاكية ص١٤٤-١٥٢. تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣١٦-٣١٧.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب ج٢ ص٧٣٨.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٨٠.

(٤) الجنزوري: الرها ص٣١٦.

المجاعة بعد أن قطع المسلمون عنهم الإمدادات[١].

وتردد صدى أنباء سقوط الرها في جميع أنحاء العالم، إذ تجدد الأمل عند المسلمين، بعد أن تحطمت إمارة مسيحية قامت دخيلة في جوف بلادهم، واقتصر الفرنج على البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسط، وجرى تطهير الطرق الممتدة من الموصل إلى حلب من العدو، وتم انتزاع الإسفين الذي دقه الفرنج بين الترك في إيران والترك في الأناضول[٢].

فتح الفتوح:

ولعل الصليبيين في الشرق الأدنى لم يدركوا مغزى استيلاء المسلمين على الرها، ولم يدركوا أن هذه الخطوة في نظر التاريخ، جاءت بالنسبة للمسلمين فتح الفتوح، وبالنسبة للصليبيين الخطوة الأولى في هدم البناء الذي شيده الفرنج بالشرق[٣].

بينما اعتبر سقوط الرها صدمة كبيرة للنصارى في غربي أوروبا، نبههم إلى خطورة الأوضاع في الشرق الأدنى، وأدركوا للمرة الأولى أن الأمور لم تجر على نحو سليم هناك، بعد أن تحولت إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، فنهضت حركة تدعو إلى إرسال حملة صليبية جديدة، ومن ثم لم يستطع الصليبيون مجابهة المسلمين إلا بعد وصول الحملة الثانية[٤].

ويعد استيلاء عماد الدين زنكي على إمارة الرها، من أهم أعماله البطولية التي قام بها ضد الصليبيين، لما لهذا النصر من أصداء في الشرق والغرب[٥]. وبهذا الفتح حقق

(١) الجنزوري: حاشية نفسه ص٣١٦.
(٢) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٨٣.
(٣) عاشور: الحركة ج١ ص٤٨٣.
(٤) طقوش: الزنكيين ص ١٥٥.
(٥) الغامدي: الجهاد ص٢٣٧.

عماد الدين زنكي انتصاراً لم يسبقه أحد قبله منذ فترة طويلة، ووصفه ابن الأثير بأنه: «فتح الفتوح حقاً»[(١)]، وأصبح عماد الدين زنكي أقوى حاكم مسلم في زمانه، لأنه طوَّع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام أي الجهاد ضد الوجود الصليبي[(٢)].

وهكذا استطاع زنكي أن يعيد للمسلمين روح الانتصارات بعد أن فُقِدت فترة طويلة، كما أنه أسقط أول إمارة صليبية في المنطقة، لاسيما أن الرها كانت أول إمارة إسلامية يحتلها الصليبيون، ودام احتلالها خمسين عاما تقريباً.

وقال رنسيمان: «..وحاز زنكي عن جدارة لقب الملك المنصور»[(٣)]. وذكر بروكلمان: «..وليس من شك في أن أعظم مآتيه - أي عماد الدين- وآخرها انتزاع الرها من أيدي الفرنج الذين سيطروا عليها نحو نصف قرن»[(٤)].

وكان هذا السقوط ضربة عنيفة للصليبيين، ونذيراً باضمحلال نفوذهم، كما كان حافزاً للمسلمين ومشجعاً لهم على مواصلة الكفاح ضد أعدائهم وطردهم من أراضيهم، وكان لهذا النصر نتائج باهرة منها:

- اعتبر هذا الفتح نصراً للإسلام والمسلمين، فقد أشاد به ابن الأثير كثيراً وقال عنه: «لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره، وسارت به

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٦٧.

(٢) قاسم: قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت رقم ١٤٩ مايو ١٩٩٠م، ص١٣٦.

(٣) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٨٣.

(٤) بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٨م ص٣٤٧.

الرفاق، وامتلأت به المحافل في الآفاق، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء، واستبشر به الأبرار والأصفياء»[١].

- أكد قدرة المسلمين على دحر أعدائهم والانتصار عليهم مهما كانت قوتهم، ولكن لابد من نبذ الخلافات أولا وتوحيد الصفوف قبل كل شيء.

- مهد الانتصار الطريق لكل من سيأتي بعد عماد الدين لفتح الإمارات الإسلامية المستعمرة.

- ضمن المسلمون السيطرة على المواصلات التي تربط بين شمالي الشام والعراق والجزيرة، وعاد الاتصال بينها مرة أخرى، كما جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية[٢].

- زاد فتح الرها في إضعاف الروح المعنوية للصليبيين، وأثار خوفهم وقلقهم، واقتصر وجودهم على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ودل ذلك على أن عقود الفرنج منذ ذلك الحين بدأت تتفسخ[٣]، وأمورها تنتسخ[٤]، ومعاقلها[٥] تفرع وعقائلها تفترع، بعد أن انهارت دعامة من دعائم الصليبيين في الشرق، بعد أن كانوا يصولون ويجولون في منطقة الجزيرة، فتحطمت بذلك الحواجز التي أقامها الصليبيون في تلك المنطقة[٦].

- تأكد لبعض الأمراء الصليبيين أنهم ليس بمقدورهم مواجهة عماد الدين على

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٦٩.

(٢) طقوش: الزنكيين ص١٥٤.

(٣) تتفسخ: الفسخ هو الضعيف الذي ينفسخ عند الشدة، بمعنى أن عقود الفرنج بدأت تضعف. ابن منظور: اللسان ج٧ ص ١٠٠.

(٤) تنتسخ: النسخ هو إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، ابن منظور: نفسه ج٨ ص٥٣٣.

(٥) المعاقل: أي الحصون. ابن منظور: نفسه ج٦ ص٣٧٦.

(٦) الغامدي: الجهاد ص١٥٥، نقلًا عن باركر: الحروب الصليبية.

انفراد، وإنما لابد من التوحد ضده.

- عزز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام»[١].

بل إن هذا النصر رفع زنكي في عيون شعوب المنطقة، وجعل منه، إمام المسلمين المدافع عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله[٢].

وهنأ الشاعر القيسراني[٣]، عماد الدين بهذا الفتح بقوله[٤] :

هو السـيف لا يغنيك إلا جلاده	وهـل طوّق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فتأخذ الظَّبي	سـناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله	ولم يك يسـمو الدين لولا عماده
وذاد قسـيم الدولة ابن قسيمها	عن الله ما لا يُستطاعُ ذيـادُه

ثم قال :

لقد كان في فتـح الرُّها دلالة	على غير ما عنـد العُلوجِ اعتقادُه
يُرَجُّون ميـلاد ابن مريم نصرة	ولم يُغْنِ عنـد القوم عنهم ولادُه

(١) طقوش: الزنكيين ص١٥٥.

(٢) جوني: وفاء، دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين، دار الفكر بيروت الطبعة الطبعة الأولى١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) القيسراني: هو أبوعبدالله محمد بن نصر بن خالد بن صغير القيسراني، الملقب شرف الدين المعالي عدة الدين، ولد في عكا عام ٤٨٧هـ وتوفي عام ٥٤٨هـ، وكان هو وابن منير شاعري الشام في ذلك العصر. أبو شامة: حاشية الروضتين م١ج١ ص١٢٧، ابن خلكان: الأعيان ج٤ ص٢٤٧، خريدة القصر وجريدة العصر مجلد١١ قسم شعراء الشام، الجزء الأول ص٩٦.

(٤) أبو شامة: نفسه م١ج١ ص١٧٣

مدينة إفك منُذ خمسين حِجَّة يِفلُّ حديد الهند عنها حدادُه
تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها ترقت إليه خان طرْفاً سوادُه

ووصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح إمارة الرها فقال(١):

بجيشٍ جاش بالفُرْسان حتى ظننتُ(٢) البرَّ بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العذبات حُمْرٍ تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم وغُرَّتُهُ عمود للصباح
صَفوحٌ عند قُدْرته ولكن قليلُ الصفح مابين الصِّفاحِ
فكان ثباتُه للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناحِ

توابع الفتح:

لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يفتح بقية المعاقل الصليبية التابعة لإمارة الرها، فقد استولى على سروج بعد أن تخلت عنها حاميتها(٣)، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى، وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلّم إليه في الحال(٤)، ثم اتجه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، ومن أمنع الحصون، وضيَّق عليها وقارب أن يفتحها(٥)، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان!.

(١) ابن الأثير: الباهر ص٦٨ ، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٧١
(٢) لدى ابن الأثير التاريخ الباهر: ظننا، وفي كتاب الروضتين: ظننت.
(٣) الصلابي: الزنكية ص٢٤٩.
(٤) طقوش: الزنكيين ص١٥٦.
(٥) أبو الفدا: المختصر ص١٧٩.

خلال ذلك الحصار وقعت محاولة انقلاب ضد عماد الدين في الموصل بزعامة الملك الخفاجي في ٨ أو ٩ ذي القعدة ٥٣٩هـ، وذلك أثناء غياب زنكي عنها، إذ اغتال الخفاجي و٤٠ من غلمانه، نائب زنكي في الموصل الأمير نصير الدين جقر(١)، ورغم أن جقر كان حريصاً على الخروج مع حراسه، إلا أنه ذات مرة خرج دون حماية، وكان الخفاجي وجماعته يراقبونه فانقضوا عليه وقتلوه(٢)، ونادوا بشعار الملك الخفاجي، فاضطربت المدينة وعمتها الفوضى، وخاف الأهالي عاقبة الأمور من غضبة زنكي وعقابه، ولكن أنصار الملك الخفاجي لم يأبهوا لذلك، مما اضطر عدداً من الحراس والأهالي لقتالهم(٣)، وعندما علم عماد الدين زنكي، أقلقه سماع هذا الخبر فرحل عن البيرة، رغم أنه كان قد شارف على الاستيلاء عليها(٤)، وأرسل القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري(٥) الذي تمكن من إفشال عملية الانقلاب وإعادة الأمور إلى نصابها، وذلك بعد أن خدع الخفاجي، وأظهر له أنه معه، وطلب منه التوجه إلى القلعة واتخاذها مقراً له، لكي يقوم من هناك بتجميع الأموال والسلاح والجند، كي يسهل عليه السيطرة التامة على البلد، إذ ليس من دون الموصل مانع، فوافق الملك على ذلك، واتجه هو وأنصاره مع القاضي إلى القلعة، وعندما دخلوها قبض عليهم جند زنكي،

---

(١) نصير الدين جقر: هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب بنصير الدين، وجقر اسم أعجمي ويرجح أنه كان مملوكاً، وكان جقر أعظم أصحاب زنكي وقد لعب دوراً مهماً في توليته على الموصل عام ٥٣١هـ. خليل: عماد الدين ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) قصة مقتله في ابن الأثير: الكامل حوادث عام ٥٣٩هـ .

(٣) خليل: عماد الدين ص٢٢٨.

(٤) ابن القلانسي: الذيل ص٢٨٠-٢٨١.

(٥) القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري: هو تاج الدين يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري، وهو أخو القاضي كمال الدين الشهرزوري، كان ذا فضل متفنن، وعلم متمكن، وله المقطوعات المصنوعات المطبوعات، توفي عام ٥٦٦هـ. خريدة القصر وجريدة العصر مجلد١٢- قسم شعراء الشام ج٢ ص٣٤٠.

وتم قتل الخفاجي[١]، كما تم حجز الملك الآخر ألب أرسلان، ثم ألغى زنكي احتجازه في أحد معاقل سنجار، وعطف عليه وعيَّن له حراساً وموظفين لخدمته، واهتم بمراسيم جلوسه وركوبه، وطالب رجاله الاهتمام بأمره واحترامه وتلبية مطالبه[٢].

وهكذا أحبطت هذه المحاولة التي كادت تطيح بحكم زنكي، وقد ساعدت في القيام بها عوامل عدة منها:

- أن زنكي كان بعيداً عن الموصل مشغولاً بحصار قلعة البيرة الصليبية.
- أن نصير الدين جقر ناب زنكي في الموصل كان ظالماً، وكانت علاقته بالملك الخفاجي غير ودية، إذ كان كثيراً ما يعارضه في آرائه ويهدده.
- تشجيع أنصار الخفاجي له على المضي في الطريق.
- مساورة الشكوك للخفاجي وتخوفه من تهديدات جقر المستمرة، ما دفعه إلى الاجتماع بأنصاره والقيام معهم برسم خطة الاغتيال[٣].

وعيَّن زنكي الأمير زين الدين علي كوجك والياً على الموصل، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور، وبسالته، فساس أمورها سياسة سكنت معها نفوس أهلها، واطمأنت معها قلوب المقيمين فيها إلى أن مات عام ٥٦٤هـ[٤].

وخاف صليبو القلعة من عودة زنكي إليهم، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي[٥] صاحب ماردين، الذي يعتبر قوة إسلامية مناهضة لزنكي، وأعلموه

(١) خليل: عماد الدين ص٢٢٨.
(٢) الصلابي: الزنكية ص ٧٨- ٧٩.
(٣) خليل: عماد الدين ص٢٢٨-٢٢٩.
(٤) ابن القلانسي: الذيل ص٢٨١.
(٥) حسام الدين تمرتاش: توفي عام ٥٤٧هـ، وكانت ولايته نيفاً وثلاثين عاماً، وتولى بعده نجم الدين ألبي. ابن الأثير: الكامل ص١٦٩٤.

برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود[١].

وهكذا فقدَ صليبيو الرها حصونهم كافة الواقعة شرقي الفرات، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من القلاع المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك[٢] وسميساط وعينتاب[٣] وعزار[٤] والراوندان[٥]، واستطاع نور الدين محمود فيما بعد اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود.

(١) الغامدي: الجهاد ص٢٣٦-٢٣٧.

(٢) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم، كانت بها وقعة لأبي فراس الحمداني مع الروم، وقد أفردها الخليفة العباسي هارون الرشيد دون غيرها وجعلها من العواصم، وشغلت المدينة دوراً في الحروب الصليبية، حتى حررها نور الدين محمود، وإثر ذلك خربت المدينة والقلعة، وبقيت قرية مضافة إلى عينتاب. الحموي: المعجم ج٢ ص٤٦١، ابن العديم: حاشية زبدة ج١ ص٦٦.

(٣) عينتاب: وتضبط أيضاً عين تاب، وهي قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك، ودلوك رستاقها. الحموي: المعجم ج٤ ص١٧٦.

(٤) طقوش: الزنكيين ص١٥٧.

(٥) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب.الحموي: المعجم ج٣ ص١٩.

الفصل الثالث

الشهيد عماد الدين

تقع قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين على الطريق إلى دمشق[١]، قد سلّمها السلطان ملكشاه إلى الأمير العربي سالم بن مالك العقيلي[٢] عندما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، وبقيت بيده وبيد أولاده من بعده إلى عام ٥٤١هـ ، وفي هذا العام قرر عماد الدين زنكي انتزاع هذه القلعة العربية، حتى لا يبقى وسط بلاده ما هو لغيره وإن كان صغيراً، مبالغة في الحزم والحيطة[٣] وذلك قبل أن يقوم بحملته على دمشق، خصوصا أنها كانت متداخلة مع ممتلكاته، فحاصر القلعة وضيَّق عليها دون أن يتمكن من امتلاكها، حتى قلَّ الماء على أهلها، ثم جرت مفاوضات مع حاكمها، وافق عماد الدين زنكي بنتيجتها على تسلُّم ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عنها، فجمع صاحب القلعة علي بن مالك[٤] الذهب حتى قلع الحلق من أذن أخواته[٥] وما إن وصل الرسول إلى معسكره حاملًا المبلغ حتى رده من حيث جاء بعد

(١) طقوش: الزنكيين ص١٥٨.

(٢) سالم بن مالك: هو سالم بن مالك بن بدران العقيلي شمس الدولة صاحب قلعة جعبر، توفي عام ٥١٩هـ. أبو شامة: حاشية الروضتين م١ج١ ص١٤٠، ابن الأثير: الكامل ص١٦٣٠.

(٣) ابن واصل: الكروب ج١ ص٩٨-٩٩.

(٤) علي بن مالك: قتل عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م وخلفه على ملك جعبر ولده مالك، ويقول محقق كتاب المسالك د. حمزة أحمد عباس: «يقول ابن الأثير إن صاحب جعبر وقتها كان سالم بن مالك العقيلي، وهو خطأ، فقد قضى سالم باعتراف ابن الأثير نفسه»، وهو ما ذكره ابن خلكان أيضاً. وقال ابن تغري بردي أن صاحب جعبر هو سالم بن مالك. العمري: المسالك السفر ٢٧ ص٢٤، ابن خلكان: الأعيان ج٢ ص٢٧٤، ابن تغري: النجوم ج٥ ص٢٧٩.

(٥) ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٧٠.

أن وردت أنباء تشير إلى قرب سقوط القلعة[١]، وأرسل في الوقت نفسه حملة عسكرية لحصار قلعة فنك[٢]، ثم حدث أمر غير مجرى الأحداث كلها.

بينما كان عماد الدين نائماً في خيمته ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٥سبتمبر ١١٤٦م، دخل عليه أحد مماليكه[٣] المكلفين بحراسته يدعى يرنقش وقتله، وهرب إلى القلعة بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس: «شيلوني فقد قتلت زنكي»، فلم يصدقوه، فأراهم السكين وعلامة أخرى كان قد أخذها من سيده، وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة، وتحققوا صدق ما كان يقول[٤].وكان عمر عماد الدين زنكي ٦٤ عاماً ومدة ملكه منذ ولي الموصل إلى أن قتل ٢٠ عاماً[٥]. ويقول وليم الصوري: «إن صاحب القلعة اشترك في مؤامرة مع بعض حجاب زنكي أثناء مواصلته حصار الموقع، وقام بعض غلمان زنكي بقتله عندما كان مستلقياً في خيمته»[٦].

وعندما بشّر صاحب القلعة بمقتل زنكي لم يصدقه أول الأمر، وآوى يرنقش إلى القلعة وأكرمه، وعرف حقيقة الأمر فسُرَّ بذلك واستبشر بما جاء بالفرج بعد الشدة الشديدة، والإشفاء على الهلكة بتطاول المحاصرة والمصابرة[٧]. وتطرق ابن العديم إلى رد فعل أهل القلعة، عندما ناداهم القاتل بقوله: «شيلوني فقد قتلت أتابك، فقالوا له: اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله[٨]، ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته

---

(١) طقوش: الزنكيين ص١٥٨، نقلًا عن ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٧٠.

(٢) فنك: قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو فرسخين. الحموي: المعجم ج٤ ص ٢٧٨.

(٣) يرى ابن القلانسي أنه من أصل إفرنجي. ابن القلانسي: الذيل ص٢٨٤.

(٤) الصلابي: الزنكية ص ١٥٩ نقلًا عن خليل: عماد الدين ص١٥٩.

(٥) النويري: الأرب ج٢٧ ص١٤٧.

(٦) الصوري: تاريخ الحروب ج٢ ص٧٤٢.

(٧) ابن القلانسي: الذيل ص٢٨٥ .

(٨) ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٦٩- ٤٧٠.

إلا المطاردة والخوف، ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم، ولم يكافئوه على عمله، ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود بن زنكي أمير حلب بالانتقام منهم لأبيه، وأخيراً تم إلقاء القبض على القاتل وأرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك[١].

ويقول ابن الأثير وهو يصف دخول رجل إلى عماد الدين زنكي بعد مقتله قبل موته: «حدثني والدي عن بعض خواصه، قال أدركته وهو في السياق، فحين رآني ظن أني أريد قتله، فأشار إليّ بإصبعه السبابة، فوقفتُ من هيبته، وقلت له: يا مولانا من فعل بك هذا حتى أقتله، فلم يقدر على الكلام، فختم الله بالشهادة أعماله، وفاضت منه نفسه»[٢]. وما إن انتشر نبأ اغتيال عماد الدين في معسكره حتى اضطرب أمر جيشه وسادت الفوضى صفوفه، فاضطر قادته إلى فك الحصار والرحيل. ويبدو أن هناك ثلاثة عوامل كانت السبب لقيام يرنقش باغتيال سيده عماد الدين زنكي، وهي: شخصي، نفسي، وسياسي.

العامل الشخصي: كان زنكي يهدده، ولخوفه من عاقبة هذا التهديد أسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه.

العامل النفسي: كان يرنقش تأثر كثيراً من معاملة زنكي له وزجره إياه، لهذا كان لديه شعور عميق بما أصابه من ظلم، فحاول أن يرد الظلم بمثله لا سيما أنه كان من أقرب مقربي زنكي، وقد بلغ منزلة خيل إليه معها أنه أصبح بمنأى عن أن يناله أذى أو تمسه إهانة، فلما كانت تلك الليلة ، وأهانه سيده أمام رفاقه، لعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته، وذبح سيده.

---

(١) خليل: عماد الدين ص١٥٩.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٧٤.

العامل السياسي: أنه ربما اتفق مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وإنهاء أزمتهم[(١)]. ولعلي أميل إلى هذا الجانب أكثر من غيره، بدليل أن القاتل فر إلى صاحب القلعة مباشرة بعد ارتكاب جريمته، كما أن هناك بعض المؤرخين الذين يرون أن عملية القتل وراءها الباطنية، كعادتهم في قتل الملوك والأمراء في ذلك الوقت.

قال الشاعر[(٢)]:

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه ... قسمان بين الكر والإقدام

يلقى الكتايب مفردا بكتايب ... من نفسه واليوم يكدر حامي

يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه ... وبرأيه وبعزمه المقدام

حتى إذا الآجل انقضى مستكملاً ... ما خط في الألواح بالأقلام

لاقى الحِمام ولم يكن مستيقناً ... أن الحمام سيبتلى بحمام

وقال الشاعر أبو الحكم المغربي[(٣)] يرثي عماد الدين[(٤)]:

عينُ لا تذخري الدموع وبَكِّي ... واستهلي دماً على فقد زنكي

لم يَهَب شخصَه الرَّدى بعد أنْ كا ... نت له هيبةٌ على كل تركي

خير مَلْكٍ ذي هيبةٍ وبهاءٍ ... وعظيمٍ بين الأنام بزُرْكِ[(٥)]

(١) خليل: عماد الدين ص١٨٤-١٨٥.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص٧٤.

(٣) أبو الحكم المغربي: هو عبيد الله بن المظفر بن عبدالله بن محمد الباهلي المري، أبو الحكم الأديب الأندلسي المعروف بالمغربي، ولد في اليمن عام ٤٨٦هـ، عالم بالطب والهندسة، اشتهر ببغداد وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على ٤٠ جملاً، توفي عام ٥٤٩هـ. أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٩٠.

(٤) أبو شامة: نفسه ج١ ص١٩٠.

(٥) بزرك: كلمة فارسية تعني الكبير العظيم. أبو شامة: حاشية أخبار الروضتين، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى١٩٩٧ج١ ص١٦٧.

وبذلك خسرت الأمة الإسلامية بطلاً شجاعاً، حقق انتصاراً كبيراً على الصليبيين لم يسبقه إليه أحد، وكم كان مقتله مؤلماً لأنه وقع عندما كان زنكي في أوج انتصاراته على الصليبيين، فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً[١]، إما لرد عدو بقصده، وإما لقصد بلاد عدو، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور، وكانت مباشر السروج آثرة عليه من وثير المهاد[٢]، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد[٣]، وأصوات السلاح ألذ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كله عناء[٤].

وكانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى المزيد من الانتصارات التي فقدتها طويلاً، وتلقى جميع أعداء زنكي بالغبطة نبأ اختفائه المفاجئ[٥].

ولا ريب أن مكانة زنكي الكبيرة في التاريخ الإسلامي ناجمة عن سعيه لجمع معظم بلاد الجزيرة والشام في ظل حكومة واحدة تستطيع الوقوف بوجه الخطر الصليبي، وتعمل للقضاء عليه، وقد اتبع زنكي لتحقيق غرضه هذا خطوات سياسية وعسكرية منظمة جعلته مسؤولاً عن مرحلة جديدة في الجهاد ضد الصليبيين، تميزت بالتنظيم، بعد أن كان الأمراء المحليون في الفترة السابقة يقاتلون أعداءهم ارتجالاً ودونما تخطيط مدروس[٦].

وكان لموته أثر مفجع في نفوس المسلمين، فدعوه بالشهيد، ورغم كثرة الشهداء

(١) ظاعن: ضد الخافض، ويقال: أظاعن أَنت أم مقيم؟. ابن منظور: اللسان ج٦ ص١٣.

(٢) الوثير: وثر الشيء أي وطأه، والوثير هو الفراش الوطيء، وكل شيء جلست عليه أو نمت عليه فوجدنه وطيئاً فهو وثير. ابن منظور: نفسه ج٩ ص٢١٤، المهاد: الفراش، وقد مهدتُ الفراش مهداً: بسطته ووطَّأته. و يقال للفراش: مهاد لوثارته. ابن منظور: نفسه ج٨ ص٣٨٦.

(٣) الوساد: والوسادة أي المخدة، وعرض الوساد كناية عن كثرة النوم. والوساد هو كل ما يوضع تحت الرأس وإن كان من تراب أو حجارة. ابن منظور: اللسان ج ٩ ص٢٩٦.

(٤) عاشور: جهاد المسلمين ص١٠٣.

(٥) رنسيمان: الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٨٦.

(٦) خليل: عماد الدين ص١٣.

في التاريخ الإسلامي فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم، وبوفاته انتهى دور الموصل لتبدأ بعد ذلك مرحلة حلب مع نور الدين[١].

صفات عماد الدين :

من أهم الصفات التي كان يتميز بها زنكي هي:

- من أحسن سير الملوك وأكثرهم حزماً وضبطاً للأمور[٢]، وكان جندياً بارعاً وسياسيا لبقاً، وتقياً مواظباً على الفرائض، عادلاً حتى أنه غضب على رجل من أعيانه يدعى عز الدين أبو بكر الدبيسي لأنه غصب داراً ليهودي وسكن فيها[٣]، وساد العدل في أيامه، واطمأن الناس إلى سلامتهم الشخصية، بعد أن أتى على تلك البلاد حين من الدهر، عدِم فيه الناس الثقة والأمن، وكانت رعيته في أمن شامل، يعجز القوي من التعدي على الضعيف، وكان ينهي أصحابه عن اقتناء الأملاك، ويقول: «مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم»[٤].

- لا يمكِّن لرسول ملِكٍ أن يعبر في بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه الرسول أذن له، وأرسل إليه من يدخله بلاده ويخرجه منها دون أن يعلم عن أحوالها شيئا[٥].

- يعلم ويهتم بكل صغيرة وكبيرة في بلاده، ولا يهمل الإطلاع على الأمور

(١) زكار: الإعلام ص٤٨.
(٢) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٨٤، ابن الأثير: الباهر ص٧٦.
(٣) ابن واصل: الكروب ج١ ص١٠١.
(٤) ابن واصل: نفسه ج١ ص ١٠١، ابن الأثير: الباهر ص٧٧.
(٥) ابن واصل: نفسه ج١ ص١٠٢.

الصغيرة مهما كان انشغاله، وقال: «إذا لم يُعرف الصغير صار كبيراً»[١].

– لا يُمكِّن أحداً من خدامه مغادرة بلاده، إذ يقول: «إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويُطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرقت الخصوم إليها»[٢].

– يغار على نساء جنوده ويعد التعرض لهن بمثابة ذنب لا يغتفر، إذ يقول: «إن جنودي لا يفارقوني في أسفاري، وقلما يقيمون مع أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن»[٣].

– قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قتل، إلا بذنب يوجب التغير، والأمراء والمتقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً، من سلِم منهم من الموت، لهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له[٤].

– كانت الموصل قبل أن يملكها أكثرها خراب، بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطبالين، ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة، وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين[٥].

– كان جباراً عظيماً ذا هيبة وسطوة[٦]، فذات يوم خرج من باب الجزيرة، وملاحه

---

(١) ابن واصل: نفسه ج١ ص١٠٢، ابن الأثير: الباهر ص٧٨.

(٢) ابن واصل: نفسه ج١ ص١٠٣، ابن الأثير: نفسه ص٧٨.

(٣) ابن الأثير: نفسه ص٨٤.

(٤) ابن الأثير: نفسه ص٨٢ ، ابن واصل: الكروب ج١ ص١٠٦ .

(٥) أبو الفدا: المختصر ص١٨٠ .

(٦) ابن العديم: زبدة ج٢ ص٤٧١ .

نائم فأيقظه بعض الجاندارية[1]، وقال له: أقعد، فحين رأى عماد الدين زنكي، سقط إلى الأرض، فحركوه فوجدوه ميتاً[2].

- أوصى عماله بأهل حران، ونهى عن الكلف والسّخر والتثقيل على الرعية[3].

- من أفضل الملوك ضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف[4].

كثير التصدق : كان عماد الدين كثير التصدق، حتى أنه يتصدق في كل جمعة مائة دينار أميري، علاوة على صدقاته السرية مع من يثق به[5]. وذات مرة ركب دابته فتعثرت به، فاستدعى أميراً كان معه، فقال له كلامه لم يفهمه، فلم يجسر أن يستوضح منه، فعاد إلى بيته وودع أهله وعزم على الهرب، فسألته زوجته عن السبب، فشرح لها، فطلبت منه الذهاب إلى نصير الدين بك ليستفسر منه، ويفعل ما يأمره به، فذهب إليه وشرح له الأمر، فضحك نصير الدين وقال له : «خذ هذه الصرة من المال واحملها إليه فهي التي أراد» .

خشي الأمير أن يفعل ذلك، وقال له: «الله الله في دمي ونفسي. فرد عليه: لا بأس عليك، فإنه ما أراد غير هذه الصرة». فحملها إليه، وحين رآه عماد الدين قال : أمعك شيء؟. قال : نعم ، فأمره أن يتصدق به. فلما فرغ من الصدقة ذهب إلى نصير الدين

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير وهي مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان ومعناه السلاح، ودار ومعناه مسك، ووظيفة أمير جاندار السلطان أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم للديوان.
القلقشندي: الأعشى ج١٥ ص٨٢.

(٢) ابن واصل: الكروب ج١ ص١٠٥ .

(٣) ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٧١ .

(٤) أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٨٣ .

(٥) ابن الأثير: الباهر ص٨١.

وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟. قال: إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم، يرسل إليّ يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به، حتى كاد يسقط إلى الأرض، فأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة[١].

وقيل إن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد عماد الدين زنكي بعد مقتله في المنام في أحسن حال، فقلت له : ما فعل الله بك؟. فقال: غفر لي. فقلت: بم؟. قال: بفتح الرها[٢].

انتشار الأمن: كان لانتشار الأمن في المنطقة أثر واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك، واشتداد الضوائق الاقتصادية، وبالإمكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله، حيث اضطربت الأعمال واختلت المسالك وانطلقت أيدي الحرامية في إفساد الأطراف والعبث في سائر النواحي[٣].

القضاء على الفساد: استطاع زنكي بإدارته الحازمة وضبط للأمور وعدالته وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد أن يحقق نتائج مهمة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد[٤].

وصف من أحد معاصريه: قال عنه أحد معاصريه: «كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه، كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقاً من الزرع، ولا تمشي فرسه فيه، ولا يقدر أحد من الأجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى

---

(١) ابن الأثير: نفسه ص ٨١ ، ابن واصل: الكروب ج١ ص١٠٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٦٧٣ ، ابن الأثير: الباهر ص٧٠ ، أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٧٢.
(٣) خليل: عماد الدين ص٢٧١.
(٤) خليل: نفسه ص٢٧٠.

رئيس القرية»[١].

حبه للجهاد: يقول المؤرخ يوشع براور: «لقد تعطل مبدأ الجهاد الإسلامي بشكل مؤقت لعدة أجيال قبل أحداث الحملة الصليبية الأولى، وكان إحياء فكرة الجهاد الإسلامي يتطلب الإحياء الديني والفكري والإعداد الروحي لدى المسلمين حتى تكون الفكرة أكثر تأثيراً وفعالية، ووضع عماد الدين زنكي أمير الموصل اللبنات الأولى لحركة الجهاد الإسلامي وتوحيد الجبهة الإسلامية، بيد أن ابنه وخليفته نور الدين هو فقط الذي جنى القطوف الدانية لهذا الإحياء»[٢].

أما المؤرخ ميشيل بالار فيقول عنه: «لعب زنكي دوراً حاسماً للإسلام بإعطائه من جديد معنى للجهاد، وباحتوائه التوسع الفرنجي، وبحشده تحت رايته عدداً معيناً من الأمراء المسلمين»[٣].

وزراء زنكي:

استوزر عماد الدين زنكي عدداً من الوزراء في إمارته بالموصل أمثال ضياء الدين أبو سعد بهرام الكفرتوثي، ثم جاء بعده جلال الدين أبو الرضا بن صدقة، وأبو الغنائم حبشي الحلي وأبو المحاسن علي العجمي وجمال الدين الأصفهاني.

ويتضح من هذه الأسماء أن معظمهم ليسوا من الموصل، بل ليسوا من إمارته، ويعود السبب في ذلك إلى اعتماده على وزراء يتميزون بالكفاءة والخبرة والإخلاص والأمانة، فضلاً عن روابط الصداقة والمعرفة السابقة. وربما كان امتناع زنكي عن استيزار أهالي الموصل خوفه من قيام الوزير «الموصلي» باستغلال منصبه وتقريب

(١) زكار: الإعلام ص٤٦.

(٢) براور: يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة د. قاسم عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص٤١.

(٣) الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن ١١ إلى القرن ١٤ ص٢٥٧.

جماعته وأنصاره في وظائف الإمارة ومرافقها المختلفة، وتجنباً لحدوث تكتلات داخل الجهاز الإداري، وإن لم يمنع هذا من قيام بعض وزرائه بممارسة هذه الأخطاء.

كما يتضح أن زنكي استوزر أشخاصاً مدنيين وتحاشى القادة والأمراء العسكريين، وربما قدر أن منصب الوزارة بطبيعته منصب مدني يسند إلى أرباب الأقلام لا السيوف، ومن ثم لا نجد في عهد زنكي ما حدث في العهدين الأيوبي والمملوكي مثلاً من اتخاذ وزيرين أحدهما من أرباب السيوف والآخر من أرباب الأقلام، كما يتضح أن عزل وتعيين الوزراء كان بيد زنكي مباشرة، ولا علاقة لكبار الموظفين كالنائب مثلاً بهذا الأمر(١).

تكافؤ الفرص: اهتم زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسيِّر أمور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور.

وقد طبق مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري كي يحقق هدفه، ويضع يديه على الموظفين الأكفاء، فكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه، ولا يضعه دونه، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه(٢).

الديكتاتور العادل: كان يؤمن بما يسمى اليوم بـ «الديكتاتور العادل» ويسعى إلى تطبيق هذا المبدأ في مجال الإدارة، فكان يقول «ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد» ويعني نفسه.

وواضح من هذا أن كلمة ظالم لا تعني هنا مفهومها اللغوي بقدر ما تعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الآخرين الارتفاع إلى

---

(١) خليل: عماد الدين ص٢٦١-٢٦٦.

(٢) خليل: نفسه ص٢٦٦.

مستوى مسؤوليته في الإدارة ومشاركته في الحكم، ولهذا السبب نفسه لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية، أو التعرض لهم بأي أذى[١].

اختياره لموظفيه: كان ينتقي موظفيه من الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، فإذا ما أضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه، أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً[٢].

وذات مرة قيل له إن هذا كمال الدين الشهرزوري يحصل في كل سنة منك ما يزيد على غشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بـ خمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تديرون دولتي؟! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خيراً من مائة ألف دينار، وكان كما قال، وهذا دليل على حرصه على رجاله واتقانه باختيارهم[٣].

زوجات عماد الدين:

١- أرملة الأمير كندغدي: كان كندغدي من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود، فجعله السلطان محمود مع أخيه الملك طغرل[٤] أتابكاً له ومدبراً لدولته، فحسَّن له العصيان على أخيه السلطان محمود، وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه، ثم مات في تلك السنة، وخلَّف ولداً صغيراً وزوجة، ومن الأموال والبرك[٥]

(١) خليل: نفسه ص٢٦٧.

(٢) خليل: نفسه ص٢٦٦- ٢٦٧.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٦٣، علي: خطط ص١٥.

(٤) طغرل: هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، توفي يوم الجمعة ١٨ رمضان ٤٥٥هـ وعمره ٧٠ عاماً تقريباً، وكان عقيماً لم يلد ولداً، وجلس الوزير فخر الدولة بن جهير لعزائه في بغداد. أبو شامة: الروضتين م١ج١ ص١٤٢، ابن الأثير: الكامل ص١٤٦٦.

(٥) البرك: المتاع الخاص من ثياب وقماش. المقريزي: حاشية السلوك ج١ ق١ ص١٣٤.

والسلاح ما لا يقدر عليه إلا السلطان، فأرسل إليها السلطان وقال: إنني قد زوجتكِ بعماد الدين زنكي، فامتنعت ثم أجابت، فركب زنكي من غد دخوله بها، ومعه ولد كندغدي(١).

٢- خاتون ابنة الملك رضوان(٢): كان زواجه بها زواجاً سياسياً، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب(٣).

٣- صاحبة خلاط(٤) ابنة سقمان القطبي: وكان زواجه بها عام ٥٢٢هـ، وهدفه من هذا الزواج أن يضم أبيها إليه ويقوي نفوذه به(٥).

٤- ابنة تمرتاش(٦).

٥- خاتون بنت جناح الدولة حسين: تزوجها عام ٥٣١هـ وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص، ويبدو أن زواجه بها ليكتسب شرعية أخذه حمص من دمشق(٧).

٦- صفوة الملك خاتون: تزوجها عام ٥٣٢هـ وهي ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك، أخت الملك دقاق لأمه، وكان زواجه منها

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٢٨.

(٢) خاتون ابنة رضوان: بنى عليها زنكي في دير الزبيب (خارج مدينة حلب) وكانت معه إلى أن فتح الخزانة بحلب واعتبر ما فيها فرأى الكبر - أي قباء محشو يتخذ للحرب - الذي كان على أبيه آق سنقر، حين قتله جدها تتش، وهو ملوث بالدم، فهجرها من ذلك اليوم.ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٣٩.

(٣) الصلابي: الزنكية ص٣٥.

(٤) خلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، وهي من فتوح عياض بن غنم، وهي قصبة أرمينية الوسطى. الحموي: المعجم ج٢ ص٣٨٠-٣٨١.

(٥) الصلابي: الزنكية ص٣٥.

(٦) الصلابي: نفسه ص٣٥.

(٧) الصلابي: نفسه ص٣٥.

ليمتلك دمشق فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها[١].

أبناء عماد الدين:

١- سيف الدين غازي وهو الأكبر : ملك بعده الموصل.

٢- نور الدين محمود: ملك حلب.

٣- قطب الدين مودود: ملك الموصل بعد أخيه سيف الدين.

٤- نصرة الدين أمير أميران[٢]: حكم حران تابعاً لنور الدين.

٥- محمد وقد أنجب ولداً اسمه ملكشاه وتوفي الأخير عام ٥٧٧هـ[٣].

ورغم المهام الكثيرة التي أوكلت لزنكي طوال حياته، إلا أن ذلك لم يشغله عن تربية أبنائه التربية الحسنة، فقد خصص لتربيتهم علي بن منصور السروجي الذي اشتهر ببراعته في الأدب وقرض الشعر وحسن الخط[٤].

قول حكيم: قال ابن الأثير: «لما نظر الله إلى ملوك البلاد الإسلامية وأمراء الملة الحنيفية، وما هم فيهم من العجز عن نصرة الدين والوهن في حماية الموحدين، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله، ارتاح للإسلام وأهله، وأنف لهم من إذلال عدوهم وأسره وقتله، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بِسوء أفعالها يجازيها، ويرسل على شياطين الصلبان رجوماً تهلكها وتفنيها، فنظر في جريدة[٥] شجعان أوليائه، وذوي الرأي والنجدة والشهامة من أصفيائه، فلم ير فيها

---

(١) الصلابي: نفسه ص٣٥.

(٢) الصلابي: نفسه ص٣٦.

(٣) هذا الابن والحفيد ذكرهما المستشرق زامبارو في معجم الأنساب والأسرات في التاريخ الإسلامي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م ج٢ ص٣٤٣.

(٤) الغامدي: الجهاد ص٢٤٢.

(٥) جريدة: تعني هنا خياراً شداداً، قال الأصمعي الجريدة التي قد جَرَدَها من الصغار، ويقال تنقَّ إبلًا

أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي، ولا أثبت جناناً[١]، ولا أمضى عزماً ولا أنفذ سناناً، فولاَّه الثغور ورعاية الجمهور، فغزا الفرنج في عقر ديارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، فأصبحت أهِلَّة الإسلام مبدرة بعد سرارها[٢]، وشموس الإيمان منيرة بعد طموس أنوارها، وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة، ووردوا من الظفر فياضة، واستنقذوا من أهل التثليث حصوناً ومعاقل، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول والطوايل، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانة[٣]، وبث فيها أنصاره وأعوانه، وفرح بنصر الله واستبشر، وقال يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزر، فعبس الكفر وبسر[٤]، وأدبر خاضعاً ولم يستكبر، فيا لها من نعمة عمت التوحيد وأهله، ونقمة مزقت من الشرك شمله»[٥].

هوايته:كان عماد الدين زنكي رغم حروبه الكثيرة مع الصليبيين، وفتوحاته المتعددة وسعيه الدائم إلى حماية بلاده من خلال توسعه، إلا إنه مع ذلك كان يترك جانباً من وقته لممارسة هوايته المفضلة الصيد، وقد شاهده أسامة بن منقذ وهو يمارس هذه الهواية وقال أنه: «كانت له الجوارح الكثيرة، وكان يتقدم الجميع لرمي طيور الماء

جريدة أي خيارا شداداَ. ابن منظور: اللسان ج٢ ص٨٥.

(١) الجنان: بالفتح أي القلب لاستتاره في الصدر، وقيل الجنان : روعة القلب. ابن منظور: نفسه ج٢ ص٢٣٠.

(٢) سرارها: استسر الهلال في آخر الشهر أي خفي، والسرار هي الليلة التي يختفي فيها القمر. ابن منظور: نفسه ج٤ ص٥٥٥.

(٣) جرانه: الجران هو مقدم عنق البعير، فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه، وفي حديث عائشة رضي الله عنها:" حتى ضرَب الحق بجرانِه"، أي أَن الحق استقام وقَر في قَراره، كما أن البعير إذا برك واستراح مد جرانه على الأرض أي عنقه. ابن منظور: نفسه ج٢ ص١٠٩.

(٤) بسر: قال تعالى "ثم عبس وبسر" قال ابن إسحاق بسر: أي نظر بكراهية شديدة. ابن منظور: نفسه ج١ ص٤١٦.

(٥) ابن الأثير: الباهر ص٣٣-٣٤.

فتصيد منها ما تصيد».

وقال إن: «الأتابك عماد الدين زنكي طارد في الموصل ذكراً دراجاً[١] فأرسله عليه، فأخذه ونزل» .

ثم سرد ابن منقذ قصة صيده وحشاً على دفعات ووصفه أنه كان من أرمى الناس، «فكان إذا دنا منه الغزال رماه، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره، ينفذه لي مع غلام من غلمانه». وذكر: «لقد شاهدته يوماً ونحن نسير بسنجار، وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: ها هنا ضبعة نائمة، فسار ونحن معه إلى واد هناك، والضبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي، فترجل أتابك، ومشى حتى وقف مقابلها، وضربها بنشابه، رماها إلى أسفل الوادي، ونزلوا وجاءوا بها بين يديه وهي ميتة»[٢].

---

(١) دراج ودراجة: ضرب من الطيور للذكر والأنثى. ابن منظور: اللسان ج٣ ص٣٢٩.

(٢) الاعتبار ص١٨٠-١٨١.س.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

- الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، اعتنى به أبو صهيب الكرمي.

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٩م .

ابن العديم: الصاحب كمال الدين بن أحمد بن أبي جرادة.

- زبدة الحلب من تاريخ حلب للصاحب، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

ابن العمري: شهاب الدين ابن فضل الله العمري.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تاريخ الحروب الصليبية والدول المتأخرة، السفر السابع والعشرون،تحقيق د. حمزة أحمد عباس - المجمع الثقافي أبو ظبي ٢٠٠٤م.

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم.

- تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، الجزء الأول، عنى بتحرير نصه الدكتور حسن محمد الشماع.

ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة.

- ذيل تاريخ دمشق، تاريخ أبي يعلي حمزة ابن القلانسي، مكتبة المتنبي، القاهرة.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ابن حوقل: أبو القسم النصيبي.

- كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، مطابع ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٨م

ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الأشبيلي.

- تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مصححة اعتنى بها أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن.

ابن خلكان:أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية ١٩٩٨م.

ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي.

- البداية والنهاية، اعتنى به الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٦م.

ابن منظور:إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني.

- لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ، ٢٠٠٣م.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم.

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الدكتور جمال الدين الشال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، الإدارة العامة للثقافة، الناشر دار القلم، القاهرة .

أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل.

- تاريخ أبي الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر ، علق عليه محمود ديوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م.

أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي.

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٢م.

- أخبار الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية،تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى١٩٩٧ .

الأصفهاني: عماد الدين الأصفهاني.

- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام ج٢، تحقيق د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، طبعة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي.

- معجم البلدان، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.

الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - دار الكتب العلمية بيروت.

الذهبي: شمس الدين محمد أحمد عثمان.

- سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، قدم له الدكتور سيد علي العفاني، وحققه خيري سعيد، ٢٠٠٨م.

القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي.

- صبح الأعشى في كتابة الإنشا، إصدار «الذخائر» العدد ١٣٠ نصف شهرية منتصف نوفمبر ٢٠٠٤، طبعة مصورة عن دار الكتب الخديوية.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

النويري: شهاب الدين عبد الوهاب.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب الوثائقية القومية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر بن قزأوغلي بن عبد الله.

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق الدكتور كامل سلمان الجبوري، والدكتور قيس كاظم الجنابي، دار الكتب العلمية بيرت ٢٠١٣م.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة:

الصوري: وليم.

- تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لمؤرخ بيت المقدس،ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ٢٠٠٣م.

باركر: آرنست.

- الحروب الصليبية، ترجمة الدكتو السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة.

بالار: ميشيل.

- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن ١١ إلى القرن، ترجمة بشير

السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الهرم الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

براور: يوشع.

- الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة د. قاسم عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

بروكلمان: كارل.

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٨م.

رنسيمان: ستيفن.

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت، طبعة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

زامبارو: مستشرق.

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية بالقاهرة ٢٠٠٨م.

ثالثاً: المراجع العربية:

أبو سعيد: حامد غنيم.

- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام مصر ٢٠٠٧م.

الجنزوري: علية عبد السميع.

- إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م .

الديوه جي: سعيد.

- تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٨٢م.

الصلابي: علي محمد محمد.

- الدولة الزنكية، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧م.

العريني: السيد الباز.

- الشرق الأدنى في العصور الوسطى- الأيوبيون، دار النهضة العربية

الغامدي: مسفر سالم.

- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة ١٩٨٦م.

جوني: وفاء.

- دمشق والمملكة اللايتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين، دار الفكر بيروت الطبعة الطبعة الأولى١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

حسن: إبراهيم حسن.

- تاريخ الإسلام، السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، الكتاب الذهبي، مؤسسة روز اليوسف ٢٠٠٣م.

حمادة: محمد ماهر.

- الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

خليل: عماد الدين.

- عماد الدين زنكي ، الدار العلمية ، بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

زكار: سهيل.

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدمه د. سهيل زكار ، مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

سبانو: أحمدغسان.

- مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٤م.

طقوش: محمد سهيل.

- تاريخ الزنكيين في الموصل ، دار النفائس بيروت ١٩٩٩م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح.

- الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥م.

عاشور: فايز حماد.

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م.

عطية: حسين محمد.

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية،الأزاريطة، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

علي: محمد كرد.

- خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

عوض: محمد مؤنس أحمد.

- في الصراع الإسلامي-الصليبي..السياسة الخارجية للدولة النورية٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٤م، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية الهرم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

قاسم: قاسم عبده.

- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت رقم ١٤٩ مايو ١٩٩٠م.

مصطفى: شاكر.

- موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

محتويات الكتاب